عنبر تاء

محمود جمال

كل الحقوق محفوظة

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 28776/ 2019

I.S.B.N: 978-977-6642-84-3

تصميم الغلاف: محمد إسماعيل.

الإخراج الفني: ضياء فريد.

المراجعة اللغوية: هند سعيد.

المديـــر العـام: إيناس ناصر.

المدير التنفيذي: شادي أبو شهبة

Logarithpublish@gmail.com

٠١٢٨١٠٥٢٨٢٤

عنبر تای

محمود جمال

الإهداء

كعادتي لا إهُدي روايتي لشخص بعينه؛ لكن هذه المرة مُختلفة.

شُكرًا لمن جعلت لحياتي "نور".

ثم إما بعد، إهداء لكل تائه، ضائع، مُشتت..إهداء لكُل من قال لا..لكل مظلوم.

إهداء إلى أمي..التي من عيناها استنشق الحياة؛ لولاها ما كُنت أقف مرة أخرى؛ فهي عُكازي..وسندي.

وأخيرًا...هذه الرواية الكذبة الأكبر في تاريخي... أنصحك بعدم قراءتها بعد النهاية ستصرخ «محمود كاتب أحمق»

لا تقرأ و وفر وقتك.

لا نفرق هُنا بين الليل والنهار، الظُلمات تخرج من قلبنا لا الغرفة المظلمة أو المُنيرة، الليل سابق للنهار و النهار كاسح الليل.

الخوف مُعد سابقًا داخل قلوبنا الهشة، ولِدنا بالخوف، ونَموت بالخوف.

العُظماء لا يفرقون بين ظلمة القبر وظلمة البصر، وأنا عظيم، وأي عظمة يمكنها منافستي!

الطعام مالح، الشراب ساخن، الخوف مُقلق، الموت راحة، الحياة مشقة.

ما اتذكره عن حياتي القديمة مشاهد متفرقة منها مثلًا:يوم كُنا فيه ظهرًا لكن الشمس كانت غائبة..جاء حكيم الحي الخاص بنا بمقص صغير وأمسك أصغر عضو من جسد أخي، وقام بقص جزء منه، صرخ أخي الرضيع و ارتجف.

سألتُ جدتي حينها «لِمَّ قص منه الحكيم هذا الجزء؟»

أجابت: أنه يقوم بتطهيره، وأنت ايضًا فعلنا معك هذا

أردفتُ قائلًا «ولماذا الشمس غائبة؟»

"لأننا في بداية موسم الشتاء..والشمس عند قوم أخرون ما زال عندهم الصيف"ـ

ـ هل الله منقسم نصفين؟

صرخت فيّ جدتي «أخرس يا ولد، سيسخطك الله قردًا»

عمري أصبح ثلاثة وثلاثون عامًا ومازلت أخاف من القردة...وأجزم أنها بشر تم سَخْطهم

يوم ولادة أخي غنت السيدات «ظهر البدر أسم الله عليه، ولد القمر أسم الله عليه، رأي الله أسم الله عليه

إذن لقد رأيت الله لحظة ميلادي..هل تتذكرني يا الله؟

أنا هُنا في عنبر المجاذيب...لكنك تعلم أنني عاقل.

وهمّ المجانين

لم نتلق تعذيب منذ أيام، شهور، مجرد غرفة مُظلمة..ليلًا...نهارًا

هنا ليس معتقل

ليس سجن

نحن داخل عنبر التربية من جديد

لا نأكل إلا القليل
ولا نشرب إلا ما يجعلنا نعيش
لا نشرب الخمر –والعياذ بالله–
ولا نأكل لحم الخنزير
ولا مسجونين كالمجرمين
ولا احرار مثلكم
دورات المياه –بالإجبار– مرة واحدة في اليوم
المُحاكمة كانت هزلية، مسرحية
قاضي مُمثل لدوره ببراعة
نحن هنا في عنبر تاء
مُسمى تاء لأنه يقتل كل الحروف الأخرى
عنبر التعذيب النفسي دون كلام
عنبر تاء؛ هُنا البداية، وأقسم لكم أنها النهاية
اشعر أنني لن اخرج من هنا إلا على سريرٍ خشبي و أدفن في الرمالٍ
من داخل عنبر تاء أحييكم
تذكروني لو أمكن
ولا تبكوا عليّ، فأنتم أسوأ حالًا مني

أنتم الأحرار جسديًا؛ مُعتقلين فكريًا..أنا حر فكريًا؛ مُعتقل جسديًا.

الندوة بعد أيام بسيطة، القاعة امتلأَت على أخرها وبيعت جميع التذاكر في غضون سويعات...الكاتب علي عبد الوهاب سيقف على خشبة المسرح مُتحدثًا أمام حوالي ألفين ونصف من المُثقفين والشباب و النُقاد والمعجبين، كما أراد بالضبط، لافتة كبيرة تحتوي على صورته، أسمه يتردد في كافة الأماكن بيوتًا كانت أو مقاهي.

لا أحد يعلم كم نقطة عرق وكم ساعة لم ينامها خَشْيَا ضياع ثانية في تحقيق حلمُه..الأن هو حقق جزء منها كبير.

أول كاتب مصري يدخل السينما الأنجليزية، أول كاتب يحصد أربع جوائز عالمية في أربع سنوات على التوالي، أول كاتب مصري تتُرجم أعماله لأكثر من خمسة وعشرون لغة.

نعم أيها السادة...علي عبدالوهاب...ضيفًا هامًا بعد أربعة أيام.

الحلقة أيضًا مُذاعة على قناة (...) الساعة السابعة مساءً بتوقيت القاهرة.

اغلقي التلفاز يا أمي..لقد سئمت من سماع أسمي يتردد كسلعة إعلامية لجذب الصحف والقنوات لي.

نعم..أعلم أن الندوة بعد حوالي خمسة وتسعين ساعة، خمسة آلافسبعمائة دقيقة..يمكنني حسابها ايضًا بالثوانٍ

قرأتُ في حياتي ما لا يقل عن ثلاثة الف كتاب من كافة التصنيفات و اللغات والتراجم

لكن..أين أنا؟ ثروتي الفكرية كبيرة وثروتي المالية لا تُعد.

سافرتُ بلاد لا حصر لها...عُمري مجرد خمسة وعشرون عام..لم أصل للثلاثين حتى!

ابن مُمتاز..اخ عظيم..صديق بارع...حبيب؟ فاشل.

بمناسبة الصديق الجيد..أستطيع شوي الفراخ...أو وضع البهارات بشكل دقيق على السمك..أو عمل كوب قهوة يحسدني البقية عليه.

هل يمكنك شرائي؟ شراء روحي نفسها لا مالي! شراء ثقتي في نفسي وترك غروري على جانب طريق مقابلتنا!

تعددت اسماء اصدقائي وقت الفرح.. ووقت الكآبة يخبرني الجميع «تملك مالًا.. وشهرة.. لماذا تكتئب؟»

وكأن الكَآبَةُ على الفقراء فقط! يا أحمق نصف المشهورين مُنتحرين!

دعوني أخبركم سرًا "الجميع بعدها سراب..وهي الوحيدة المنار"

جلستُ يومًا مع سجين سرق الف جنيه ليُطعم اطفاله؛ ولم يَعِفُّعنه صاحب المال وتلذذ بتعذيبه..ووضع حريته في كفة أمام جسد زوجته.

هُنا يظهر معدن الرجال، السارق العفيف صفعه بالقلم أمام الضابط ورفض الخضوع.

عندما تحدثت معه قال "السجن للرجال..لكن ما يفضح الرجال عيونهم، داخل الزنزانة ترى الخائف والقوي والضاحك والباكٍ و الصديق، الوحدة تُعلم الصبر، والصبر يُعلم الصداقة الذاتية..تخيل أنني أكتشفتُ في نفسي مواهب جديدة! الكُتب كانت أمامي طيلة العمر ولم اقرأ حرفًا..القرأن الكريم أمامي ولم المسه..في السجن علمت قيمة الحرية، الغرفة الصغيرة التي تحتوي قلوبنا علمتنا الكثير، في سقف هذه الغرفة نظرتُ كثيرًا له..هل همْ الصح أم نحنُ؟ انا هنا بسبب الف جنيه لا تسمن ولا تغني من جوع...وهذا هنا بسبب إيصال إمانة.

عندما كُنت في الخارج كنت اردد دائمًا "ماذا يفعل السجن في قلب حُر؟"

وعندما أصبحتُ سَجين «ماذا يفعل قلب حُر داخل زنزانة موصدة الأبواب؟»

التناقض داخل كل بشري لا مثيل له..أنت ذات نفسك مُتناقض يا سيادة الكاتب..السجان متناقض، عشماوي مُتناقض..يُنفذ حُكم الأعدام ويذهب يضاجع زوجتهُ لينجب ولد يُكمل به العدد.

بعد نهاية الكلام معهُ تأكدتُ أن الحرية لا تُشترى بأي حال من الأحوال...الحُرية مُكتسبة من داخل الأنسان، الأرض، البيوت، .لذلك فلسطين حُرة..سوريا حُرة..مصر حُرة،

سوريا تُشبه طفل صغير ترك لعبة في يده ليمسك فأس ويزرع الأرض مع والده صاحب الأرض؛ أما فلسطين.. تتشابه مع حبيبتي في الصفات، لا استطيع الصلاة في عينها لكثرة الأحزان..ولمسة يدها تحرر من الشبهات.

أين أنتِ يا فلسطينيتي؟

أين زهرة شبابك يا بنت الشام؟

أغلقتُ المدونة الخاصة بيّ بعد نداء أمي عليّ مرات عديدة..خرجتُ لها..أحضرت لي ملابس الندوة..قميص أسود وفانلّة بيضاء وبنطال رُمادي.

عظيمة كما أنتِ يا أمي..تختارين لي مثل قديم الزمان، قوية كما الجبال، مُنتشرة في جسدي كالرمال في الصحراء، بدونك الحياة سوداء، دائمًا يخبرني الناس أن الأب هو السند..كيف يكون الأب سند في وجودك يا جبل حياتي؟

أمي..هل وصفتك من قبل بحق؟ هل ذكرتك في رواية ليّ؟ سأعوض كل ذلك يوم الندوة..معي من الوقت ثلاث ساعات كاملين..سأخصص لكِ منهم ساعتين

لا لن يكونوا بالكفاية..يومين؟ عشرة سنين؟ مليون سنة؟ لن تكفي ساعات الدُنيا في وصفك يا أمي مهما طالت

غدًا الندوة..غدًا اللقاء العظيم..اليوم الذي ينتظره عشاق الأدب والفن في مصر..أعزائي المُستمعين و القراء و المشاهدين.

غدًا علي عبد الوهاب معنا ومعكم لثلاثة ساعات و قد تطول على حسب سياق الندوة.

أنتظرونا

أنهيتُ في ثلاثة أيام كُتب كثيرة..لا أفعل شئ سوى القراءة، هي بالفعل غذاء الروح، أمي تُدللني..شعور أنك مطلوب من الجميع مُمتع، الكُل يسأل عليك، صحتك، هل تريد شيئًا؟ مشروبك اليوم طعمه كالعادة أم تريد تغييره؟ هل وجدتُ مكان لسيارتك أم نُخرج كل السيارات من الساحة؟.

الفتيات يُلقين أجسادهن عليّ..لو أردت الزنا مع إحداهن لن ترفض، المال يفعل كُل شئ.

العظمة ليست فكَوني مشهور، بل معي كُل سُبل الحياة، شهرة، مال، لسان، وجه مقبول ملامحه.

الدُنيا تفتح ذراعيها لمن معهُ مفتاحها، ومفتاح الدُنيا الذكاء.

الذكي يمتلك مفاتيح الدُنيا كما يمتلك الله مفاتيح السَمَوات.

مرت الساعات سريعًا..أمي تُيقظني وتخبرني أن أخواتي وأولادهن خارج غرفتي ينتظرونني.

خرجتُ قبلت رأسهن وبناتهن ودخلت لأستحم.. الجميع ينتظر مني يوم عظيم في تاريخي.

اليوم مَر طبيعي حتى الساعة الرابعة عصرًا..تحركنا جميعًا للقاعة.

وبدأت الندوة...

تجلس أمي في نهاية المنصة التي أقف عليها...لا أحد يراها غيري...مثلي...لا أحد رآني غيرها...لم يشعر بي أحد غيرها...أعزائي...معكم علي عبدالوهاب لمدة ثلاث ساعات ليتحدث معكم عن أشياء هو لم يُحضر منها حرف...سأرتجل...وها هي فرصة لإسكات المشككين في أمري...سأعطيكم أنتم إشارة البدء...أسألوا وأنا أجاوب ومن إجابتي أفتح مواضيع جديدة لا أريد الكلام عن نفسي.. فكلكم تعرفونني..أريدكم أَنتُم التَحدُث وأنا معكم. الندوة اليوم لكم..أفعلوا فيّ ما شئتم

رفعت فتاة يدهاقالت: من حسن حظي أنني هُنا، تقريبًا أخر تذكرة مُباعة كانت من حظي، التحدث مع شخصية ذكية مثلك أستطاعت أن تُحقق المُعادلة الصعبة للنجاح، نجاح... سمعت كثيرًا عن حُبك للفلسفة و الأجابات المُهدئة للأعصاب، ماذا عن النسيان؟...كيف ينسى الشخص حُب لم يكمل؟

- لا تستيقظ من نومك لو أردت النسيان، لكن لا تحلم بها!

الحب هو النظرة الأولى، هو الذي بحثت عنه سنين طوال، لا تلمسي يده في السلام، لا تنظري لعينه، لا تخاطبيه.

هل تظنيني مجنون لاقول لك لا تلمسِيه! بعد البحث عنه سنين وسنين! هو اللقاء يا صديقتي، هو اللقاء الممتع، هي تشبه لحظة لمس روحك لجسدك بعد حادث سيارة، تشبه لمسة يدك لطفلك الصغير

- لا أستطيع نسيانه!
- تستطيعِ...الحياة أبسط بكثير من التفكير في شخَص يضر بصحتك...الحب يشبه النيكوتين...الفارق بينهم الاول يأكل القلب والثاني يأكل الرئة!..الحب هو أجمل احساس يصيب قلب البشر، يميزه بالحنية والوضوح، الحُب الحقيقي لا يفنى مهما ضاعت أسبابه الأولية؛ إما لو أنتهى، لا مفر منه سوى النسيان، والنسيان قاتل، لكنه مُهم..وأنا أخر من يمكنه التحدث عن كيفية النسيان؛ لأنني حي بذكراها.

قالت فتاة صغيرة الجسد والسن بلهجة تحدي..أريد الدخول معك في تحدي الكلمة الواحدة

- أبتسمتُ لها، «تحدي الكلمة الواحدة..هيا بنا»

ـ الموت؟

=راحة

ـ والحب؟

شقاء

وأنت؟

أحمق

والدنيا؟

زائلة

وعيناك؟

هي

وهي؟

أنا

وأنت؟

أحمق

لماذا قلت على نفسك أحمق؟

بسببها

وكيف أستطعت أن تجيبني بكلمة؟

وعد

وما هو وصف الوعود عندك؟

حماقات
ومفرد حماقات؟
أفعالي
وجمع أفعالك؟
أوجاعي
مقسومة على الماضي؟
مستحيل
مضروب في أثنان؟
الواقع
ناقص الحياة؟
هي
أمك؟
الروح
على من؟
قلبي
داخل من؟
عقلي
لقد مللت من أجاباتك الفردية!
الوعد

الى متى؟

الزوال

وماهو؟

الصمت

وكيف يكون؟

بالرضا

وكيف ترضى؟

بالصمت

أصمت أذا

لا

فسكتت الفتاة للحظات وقالت...أحسنت...نجحت في الأختبار.

ضحكتُ ضحكةَ خفيفة و قلت لها باسمًا:

الكفر لا يولد إلا بالعند...والعند لا يولد الإ بالأصرار على وعد...الوعود دائما كاذبة والأفعال صادقة...الأفعال هي من تحدد قيمة الوعد...يمكنني أن أَوعَدَيوميا مائة وعد! والتنفيذ! صفر...الصفر من أهم الأعداد...الصفر هو من يتحمل على عاتقه الموجب والسوالب...يقف في المنتصف...يمد يده اليسرى ليتوقف السالب عن أقتحام

الأعداد...ويمد يده اليمنى ليتوقف الموجب عن أقتحام صفوف السوالب!

فرفع شاب يده...أشرت له علي أنني لم أنْه كلامي بعد : إلاحترام... يا أل أدم...كلنا أل أدم...من نسله... سأسمي أبني أدم...وأربيه على الزهد...وأعلمه أن يبتعد عن الأغربة...لأنها تفتح العقل على طريقة الدفن...وسأعلمه أن الدنيا فانية...لا تستحق هذا الإرهاق.

نظرتُ للشاب الذي رفع يده قُلت «تحدث أذا أردت»

- لماذا أخترت طريق التحدث بعقلانية وكأنك فيلسوف؟ وهل تظن أن هناك فلاسفة في زمننا هذا؟ وما أدرانا أنك تتحدث بصدق وليس مجرد كلام من كتب فلسفة ملقاه على الأرصفة؟

أجبتُ وأنا اتنفس بصوت مسموع: هل يمكنك أن ترتدي بنطال مقاسه مختلف عن مقاسك؟ أنا لم أختر هذا الطريق...وضع الله لي أدلة لأسير هنا...وضع الله لي حياة لم أعشها في الواقع فعشت بها في كلامي...وملحوظة لك يا صديق...الكتب تكون ملقاه على الأرصفة لتزين الطرق الكئيبة...كما تزين الكتب عقولنا

قال شيخ كبير تجلس بجانبه إبنته: والقرأن يا مولانا؟

بإبتسامة صغيرة: القرآن يا والدي أسمى من أن يُذكر في مواضع الكلام عن الروايات والكتب الفلسفية القرأن نور للأعمى قبل المبصر

- ولماذا لم تتجه لتفسيره بدل من الكفر الفلسفي!؟
- مهما وصل بي الذكاء أو القدرة على فهم الكتب وتجميع كلمات في أسلوب منمق لتظهر في شكل جمل قوية لن أستطيع أن أفسر حرف واحد من أحرفه المنيرة! وأذا قمت بتفسيره خطأ عن قصد أحاسب عليه
- إن الله غفور رحيم...وإذا حاولت وأخطأت مرة لن يحاسبك الله
- العلم الذي أدرسه حاليا ليس بكفر، الفلسفة ليست كفر، هل ابن رشد ابن عربي و غيرهم الكثير كفار؟ هل اللغة التي تحدث بها رسولنا الكريم ليقنع قومه كفر؟ هل فهم معجزات الله على عباده المرسلين كفر؟
- لا...لكني أخشى عليك من الإنزلاق في نفق اللاهوتية؟

- نفق اللاهوتية عندي محاوط بسور الإيمان بالله
- ومتى شعرت به؟
- عندما دعوته في صلاتي وطلبت منه النجاح والتوفيق وتسهيل أمنياتي كما سهل طلبات موسى ولم يتأخر علي وأكرمني
- موسى تحولت عصاه لثعبان؟
- وأنا تحول لساني لثعبان، يلدغ كل من يحاول التقليل من شأني...لذلك نجحت

تمر الايام والساعات البطيئة، لا أفعل شئ فيها الا القرآة والكتابة، وكأنني خلقتُ لذلك فقط، قرأت فيما يزيد عن مائتي كتاب في شهر ونصف شهر، كتبت حوالي مئة صفحة من روايتي الجديدة، الي ان سمعت صراخ تحت شباك غرفتي، هرولت لأجد معركة كبيرة في الحي بين الجزار والقهوجي كالعادة علي حساب قهوة هو يقسم بالله أنه حاسب والاخر يرد علي القسم بقسم أخر، القهوجي دائمًا في حالة غياب عن الوعي بسبب ما يتعاطاه والاخر يقصد قهوة أخرى، مهلا! اليس ذلك الجزار الذي لم يشرب القهوة

في حياته! هل أصبحت تغيير المبادئ سهلة عند البعض كتغيير البنطال مثلا! هل اشارات عقلنا بتغيير مبدأ ثابت أصبح في سهولة الاشارات الاسلكية الخاصة بالراديو... المبادئ تتغير بسهولة...تعلمت تلك المقولة من عدة أشياء حدثت أمامي.

رفعت فتاة يدها فأذنتُ لها قالت:

أتمني ان تكون بخير جسديا ونفسيا، أعتبرني مجنونة أو مهووسة برواياتك وكل جملة تكتبها في أي موقع إلكتروني، أشعر ان بداخلك نار لا بد ان تخرج، كلامك في رواياتك عبارة عن حمم بركانية تغزو قلوب القراء، هل من الممكن أن تجعلها تمطر في رواية قادمة! لقد أحترقت قلوبنا كثيرا بحممك؟!

نظرتُ للأرض وصرخت: أنتم من جعلتموني أستمر في البركان، سؤال الكثير من المتابعين لي «من هي» يجعلني أتذكرها، كتاباتي عبارة عن دم يسيل علي الورق تطبعه المطبعة ويشم رائحته القراء ويعشقه مصّاصالدماء امثالي وامثالها!

ردت عليّ بهدوء ينم علي ثقافتها: عندما تتكاثر حبات الماء اثناء المطر يمكن للبركان ان يهدأ

سألت مُتعجبًا: هل يهدأ البركان قبل ان يفرغ حممه!

فقالت:الله قادر علي كل شئ، مثلما خلق البركان والاعصار والسيول، خلق دروع الحماية

سألت: كم عمرك؟

قالت: ثلاثة وعشرون عام

ـ أنا اتفوق عليكي في فرق العمر، لكنك بسهولة قد تتفوقين عليّ في الأجابة...ما أسمك؟

ـ إسمي أسماء..هل توجد أسماء في حياتك؟

أبتسمتُ وقُلت «من نعم الله على عبدهُ معرفتهُ أسماء.. إما أسمائي..مُشرقة، مُبهجة، جميلة، اليوم لا يمر من دونها، مثلها مثل الشُريان الرئيسي في القلب، رئة الحياة، جنة الأرض، طفلة؛ طفلتي!»

ـ لا تجعلني أحسدها؟

ـ وهل الملائكة يجدي معها الحسد نفعًا!

هي..الدُنيا خُلقت من أجل ارضائها..الإبتسامة خلقت لترتسم على وجهها بخفة ودلال، الأنوثة خلقها الله كي تتدلل، فيروز تتعلم الرقة من صوتها، اسمائي! ناجحة، عظيمة.

ـ هل نسيت منارك؟

- قيس ينسى ليلى معها، عنتر ينسى عبلة أمامها، أنا..أنسى أسمي.

بحركة تلقائية نظرتُ يمينًا وقُلت "أدامها الله في حياتي البائسة التي لن تصبح بائسة بوجودها!

- ما أكثر وظيفة تكرهها؟ سألت فتاة أخرى
- المهرج...وظيفة مؤلمة...يبتسم في وجه الجميع ليضحكوا وهو يصرخ من تحت القناع...قناعه المبتسم دائمًا يخفي القلوب وما فيها....يقف المهرج على خشبة المسرح ويخبرنا النكات ويحرك يده في حركات ظريفة ليضحك الأطفال والكبار، ثم يهرب الى غرفته ليكلم والدته هاتفيًا ويبلغها أنه بخير وضحك الكثير وسينافس عليه أكبر سيرك في الشرق الأوسط، حلمه بسيط أن يتزوج الفتاة التي يحبها و يعيش حياة كباقي الشرفاء...المهرج في نظر العالم أحمق، لا يجوز أن نعيره أهتمام شخصي! الجميع يمكنه الأعلان عن غضبه إلا هو.
- هل عشت مع مهرج من قبل؟

- لا...كنت مهرج...انا مهرج لأصدقائي وأحبائي...وعندما أبتعد وأعلن عن حزني يقولون «أنت كاذب..دائما سعيد أنت فقط تريد الشهرة» ياليتهميريدوا الشهرة مثلي!

=ما مفهوم الشهرة؟

- الشهرة و المال وجهان لعملة واحدة، الفقراء الذين نراهم في الاعلانات التجارية وسيلة للشهرة وجمع المال، أشك أن الكثير من الجمعيات التي تعلن أنها تساعد الفقراء لا تعرف عنهم إلا وصفهم

=وما وصف الفقير؟

- عفيف
- والعفة؟
- فقر
- ما أكثر عيب أرتكبه الفقير؟
- عدم قتله للغني المتكبر
- ومن هو الغني المتكبر؟
- هو من جعل الفقير ينظر لحسابه البنكي
- ما مفهوم التكبر عندك؟

التكبر سمة أساسية من صفات الأنسان! يعيش الأنسان في تكبر ويموت في ذل، من عاش حياته بدون تكبر عاش كالأسد ومات في ساحة المعركة الكبرى بين الفقر والكبرياء والتكبر والذل...فعاشت جميع الصفات ومات هو

صف لي شعورك عندما تشعر بالحزن؟ـ

ـ هو نفس شعور المشكك في ذمة الله ويقف في حي طويل يصرخ «من أغنى شخص هنا؟» فلا يجيبه أحد...فيعيد الصراخ مجددا «من أغني شخص هنا؟» فيجيبه نور من السماء ينبهه أنه أغنى الأشخاص هنا لأنه تحت نظر الرحمن دائمًا، وغنى النفس البشرية أسمى من الغنى المادي، لذالك قتلت ذلك الكاذب الذي كان يتحدث منذ قليل!

=لا أفهم...من أنت؟ـ

ـ أنا مقسوم نصفين، نصف فيلسوف ونصف يكره الفلسفة، نصف يعيش كالغراب والاخر كالنعام، نصف يعشق البيض والأخر يلعن الفرخة التي باضت تلك البيضة

- من الأول إذا؟
- الله...هو الأول دائما ولا يسبقه شئ

بعد لحظات قليلة من الصمت والتفكير:

ـ ماهو شعورك لو أصبحتِ رجلاً! فقالت وهي تبتسم

ـ لكنت أجمل رجال الكون

- هل تحبين البكاء؟
- التلقائية سمة من سمات الأنسان...الانسان بطبعه أنسان بكاء، يبكي ويولول كثيراً... دائمًا كثير الشكوى والبكاء والصراخ...حتى في الغزل «أريد أن أبكِ بين أحضانك» وكأن الحضن بكاء فقط، وكأن البكاء خارجه حرام
- هل تسمع الأم أنين جنينها؟
- نعم...وأيضًا يسمع الجنين أنين الأم لذالك يضرب رجله بجدار معدتها...وكأنه يخبرها أنه بجانبها دائمًا
- هل الجنين يتحدث؟
- لا الجنين يشعر بنبضات الام الحزينة و نبضاتها السعيدة وغضبها
- وأنتِ؟

- أنا ماذا؟
- هل تشعرين بالنبض؟
- هل أنت جنين
- كُنت جنين
- والأن؟
- ميت يسأله الله
- وأين الله؟
- في قلبي
- حي؟
- فات
- لغز؟
- لا...قطار حياة قلبي فات
- ممن تخاف أكثر من ملك الموت؟
- صوت عبدالباسط عبد الصمد!
- لماذا؟
- صوته يتكرر على مسامعي بعد وفاة أي شخص، المقرأ الخاص بالجنازات، يذكرني صوته دائما بالموت، كأنه ينبهني «ستموت قريبًا»، سمعت صوته أول مرة عندما قفز الرجل من

أعلى البيت، وعندما مات جارنا، وعندما مات جدي، أصبح صوته رنان في أذني، لا أسمعه إلا وقت الوفاة.

- ما نصيبك من الدنيا؟
- الأربعة وعشرون قيراط أخذتهم جميعا تنبأ بمواقف وقتية، قبل حدوث الموقف بقليل أشعر به

=جمالك؟

- لست يوسف!

=معجزتك؟

- لست إبراهيم!

سأقص عليكِ قصة قصيرة، رجل جميل للغاية...جلس مع رجل أقل منه جمالاً، فقال الثاني «يا ليتني كنت مثلك» فأبتسم الأول وقال «ياليتك»...تمر الايام...أيام قليلة بساعات كثيرة، يبكي الثاني من شكله المتواضع، ويصرخ الاول، يجلس الاثنان في سيارة الثاني، ينزل الأول ليحضر شئ يأكله، يسقط لوح زجاج من مبني في مرحلة الأنشاء! لحسن الحظ سقط بعد منه بخطوات قليلة، خرج الثاني من

السيارة وهرول له ليطمئن عليه! أحس الأول بألم في قدمه اليمنى فلم يرفع ملابسه حتى لا يظهر طرفه الصناعي....

الحب الأفلاطوني ليس له وجود، البحر الأفلاطوني لن ينشق من أجل قليل من الدموع!.

وقف رجل من الحضور يرتدي بذلة بكامل اناقته وقال: أنا المؤرخ أحمد سعيد

سلمتُ عليه وشكرتهُ على وجودهُ.

سؤال سريع: مقارنة بين الثقافة الإيطالية والفرنسية، من تستحق الأشادة أكتر؟

أبتسمتُ: صديقي العزيز ذكرت في رواية من رواياتي من قبل الثقافة الفرنسية الجميلة، وأيضا تحدثت عن الأيطالية، لكني سأجيبك كأنني أجيب لأول مرة

دافنشي عندما رسم «العشاء الأخير» لم يستطع أي رسام سواء أيطالي أو فرنسي أو عربي حتى أن يخرج هذه الرسمة بهذا الشكل، لكن رسم المشاهد على الورقيجعلك تعشقه دون أن تعرفه

هناك مشهد من مشاهد لعبة الحب والفرصة صورها بيبر بنفس شكل الطاولة التي جلس عليها الجميع في العشاء الأخير، هؤلاء العظماء لا يستطيع أحد أن يضعهم

في مقارنة، كل شخص منهم يتمتع بعبقرية فريدة من نوعها، المكرونة الأيطالية لا يمكن أن تقارن بالشوربة الفرنسية، وهكذا، جميع عظماء أيطاليا وجميع عظماء فرنسا أكبر بكثير من التحدث عليهم في ندوة مثل هذه

- والرومان؟
- أنت تصر على التحدث عن التاريخ الأيطالي، الأمبراطورية الرومانية جاءت من ضلع روما، وأسقطت نفسها بنفسها بسبب الصراعات بين يوليوس قيصر وبومبي...بالتأكيد ستقول لي الرومان أستمروا مدة كبيرة بعد يوليوس قيصر، سأقول لك، أي أمبراطورية عظيمة مثل روما ورومانيا ستبقى بعد خيانة ديكتاتور كبير مثله! حتى لو بقت ستبقى مهزوزة
- سألالمؤرخ: هل درست الثقافة الهندية؟

بعد تفكير لثوان معدودة: الثقافة الهندية شبه معدومة من الأساس، الأديان عندهم أكثر من الجنس في أفلامنا، هندوس وعبدة بقر ومسلمون ومسيحيون ويهود وسيخي وبوذي! والعجيب أن الجميع يعيش تحت سقف واحد! يعيشون ويتعايشون بطريقة رائعة، تشعر أنهم كيان واحد ليسوا مختلفين دينيا!"

الله يعلم ما في قلوبنا من حب وخير وشر وكره و ذكاء وغباء! الله يعلم من سوف يخوننا ومن سوف يستمر معنا للنهاية، الله يعلم كيف بدأنا وكيف ننتهي الله كان معنا في جميع مواقف الخوف «لا تخف أن الله معنا» ألم يقول رسوله الكريم هذا! ألم يسافر عيسى ليكفر عن خطيئة قومه كما يقول رجال الدين المسيحي! الأب والأبن والروح القدس...دائما نتحدث عن الأب والأبن وننسى الروح القدس!! مع أنها أسمى الأرواح...الله أكبر نقولها في صلاتنا للأنتقال بين الركعة والأخرى...لم نستشعر بالروح القدس ولا الله أكبر في قلوبنا...مجرد شعائر نفعلها لتقضية الغرض وكان الله بالسر عليما!

طلبتُ من العامل في القاعة إحضار كوب من الشاي... أرحتُ ظهري على الكرسي و دخنتُ سجائري:

- أعلم علم اليقين أن التدخين هنا ممنوع...لكني أستنشقت الكثير من أسألتكم فأحتجت للزفير لكن للدخان...الدخان يشبه طفولتي...ضاعت مجانا...لم أشعر بها...مرت كنسمة على جبين طفل يبيع مناديل في نهار رمضان...أتذكر أنني لم ألهو في طفولتي كبقية الأطفال...حتى عندما

كنت ألهو معهم...عقلي كان في مكان أخر...
هل سيبيت والدي اليوم في المنزل أم سيرحل

قالت سيدة في أوائل الثلاثينات على ألأقل: وما الحل حتى لا يموت الجيل القادم جوعا؟

- الأجيال القادمة ستموت جوعا أهون من أن تموت مثلنا...حسرة على ما وصلنا له...نحن وصلنا للقمة في الجهل والتخلف
- فقال الرجل الكبير بسخرية: هل أنت مستعد لمقابلة الله؟
- لم أسمع يوما أن الله ظالم...لم أسمع يوما عن أنه ظلم شخص على حساب شخص أو أعطى شخص ليمنع شخص اخر...عندما أقف بين يده سيحاسبني على أفعالي فقط...لكن البشر يحاسبونني على ما فعلوه هم وينسون أفعالي

بعد صمت لحظات ضحك فيها من ضحك قُلت بعد تنهيدة طويلة:

- هو شعور يشبه وجود شخص في مخيلتك لا يمكنك الإستغناء عنه...شخص تتحدث معه بإستمرار و تضحك وتبكي وتصرخ معه... شخص يشعر بك أينما كنت وأينما تكون

شخص يقسم لك أنه لن يتركك مثلهم.. وستضطر أن تصدقه لأنه بالفعل صادق...لكنه في النهاية مجرد صوت يداعب عقلك ويلعب على أوتار قلبك، أخر لحظات الحياة هي اللحظات التي تشعر فيها بأطرافك كلها، نحن مجرد أجسام صغيرة تتحرك بين أجسام كبيرة لا يمكن عدها أو التفكير في العدد حتى، نحن أعداد فلكية ثابتة لن تتغير...الرزق والنصيب والحب والحياة لن يتغيروا...ثابتين مهما كلف الأمر...كل يوم يمر عليك هو بمثابة حياة جديدة تعيشها...كل تجربة تشعرك بكيانك، وجدانك، أحساسيك، مشاعرك، لن تموت وأنت في قلبك شئ ناقص، لن تموت وعقلك يفكر.

ـ لماذا جئتم اليوم؟ لماذا تكبدتم عناء الطريق وجئتم؟

كما توقعت الإجابة الصمت، كعادة كل الأسئلة الحقيقية التي أجابتها تنتهي غالبًا بأجابات صادمة.

ـ هل أنت صديق عقلك الباطن؟ سألت فتاة

- نعم...انا وعقلي الباطن أصدقاء...نجلس سويا ونشرب كوبًا من الشاي ونلعب الدومينو ونسخر من الواقع ونعشق الخيال وننسى أوهامنا.

ظهر على وجه الفتاة إستغراب من الكلام!:

- العقل الباطن يمكن تسخيره لخدمتك وخدمة واقعك...عقلك الباطن قد يصور لك أحداث لا يمكن أن يتخيلها غيره، يصور لك أنك تحبين شخص أو تكرهينه أو تعشقين وجبة معينة أو أو، عبارة عن أوهام لنجعلنا نصدق أحلامنا، العقل الباطن أعظم حمال لمشاكلنا وأوهامنا، أين كنت؟ كنت مع عقلي الباطن نتسكع قليلا...هل تحبها؟ سأستشير عقلي الباطن ثم أجب!

من أصعب اللحظات التي مرت علي عندما واجهت والدي ما بداخل قلبي! حاول عقلي الباطن أن يجعلني أتوقف...لكن قلبي قال لي استمر...أفرغ ما بداخلك في وجهه سيتحسن حالك، تحركت وراء قلبي بخشوع رهيب صرخت في وجهه:

- "أبي...لماذا فعلت بي كل هذا...لماذا تركتني عندما طلبت منك عدم الرحيل ودمعت عيناي وأنا أرددها...لا ترحل، لا ترحل، أبي...لماذا تركتني وحيدا دون أب يهتم بي، لطالما لم تكن لي أب، كنت أحارب الجميع من أجلك، كنت أقول أن والدي ملك فوق عرش الرجال ثم ألقيتني في البئر مع يوسف ليلتقطه المارة ويتركونني حائر كاره للدنيا وما فيها! بسببك يا أبي أصبحت مشوش، لا أستطيع أخذ قرار من عقلي بسبب خوفي من تداعياته بسبب عدم وجود أب يسندني! لم أشعر بك سند يا أبي! متى كنت لي سند؟ عندما ضربني زملائي في المدرسة ولم تأتي عندما طلبت منك المديرة؟ عندما فتحت لك قلبي بحبي لفتاة فتركتني ونظرت للتلفاز كأنني سراب؟ عندما أخبرتك بنجاحي في الثانوية العامة ومجموعي الذي لم يتخيله أحد قلت لي هنيئا بنجاحك! عندما تمكن الشيب مني في عز شبابي! عندما أنحنى ظهري من الصراخ والإرهاق! عندما تركتني أكل ويدي مليئة بالتراب وأنا طفل أرى أصدقائي

يلهون! عندما كان ينظر لي الجميع نظرة أنك أبن الحاج فلان الذي يفتخر به الحي بأكمله! ثم تركني الجميع عندما علم أنك لا تطيق أمي ولا تطيقنا! ماذا فعلنا لك ونحن أطفال لتتركنا نموت جوعا وأنت مع أحبائك تسهرون وتمرحون! لن أستطيع نطق أنك فعلت شئ من المحرمات والحاشا لله...لكن تركنا ونحن أطفال لا نستطيع المشي الأ بإذنك أكبر محرمة! ياليتك قمت بهدم الكعبة ولم تهدم أبنائك»

ثم نظر لكل من في القاعة وهم ينظرون بأستغراب شديد قلت "أعتذر على كلامي...ليس له وجود من الأساس في المحاضرة"

فصرخ الجميع "أكمل"

جلست على الأرض بعد أن بلعت القليل من الماء المتجمع في فمي.

- أشعر أنني ألة...ألة تم خلقها لتكون كل شئ إلا نفسها...المنشار الخاص بتقطيع الذهب، قلبي قديما كان يتكون من شرايين وبطين أيمن وأيسر كأي شخص خلقه الله...الأن أصبح مجرد قطعة في جسدي يضخ الدماء

لباقي الجسد وكان الله بالسر عليم...قطعة سوداء...لم يسود بسبب دخان التبغ، ولم يلوث بسبب عوادم السيارات...لكن عوادم البشر أصبحت أكثر سوءًا، أتذكر أنني وعدت فيما يفوق خمسون فتاة بالزواج حتى وعدتني هي بالزواج، لكن بسبب تشتتي وخوفي من الغد المشرق تركتها.

الحياة ظالمة بكل المقاييس.

- علي..أستيقظ يا علي...سنتأخر على المحاضرة يا عزيزي

=استيقظتُ..استيقظتُ يا أمي

- أذهب واغتسل يا حبيبي لترتدي ملابسك... أنا مستيقظة منذ الفجر أدع لك بالتوفيق في محاضرتك اليوم

داخل سيارتي الصغيرة...قالت أمي:

- هل أنت بخير؟

= لا...لا يا أمي...خائف...أشعر أن راشحة الفشل تداعبني اليوم...أشعر أن جميع جوائزي ستذهب هباءً... بدأت مظلم ثم أصبحت نور...أشعر اليوم أنني سأرجع للظلام مرة أخرى!

ـ لا يا علي...أنت أقوى من الكل...هل عندك شك أنك أقوى من الكل..أنت من تستحق.

مرت الدقائق سريعًا... قال منظم الحفل ليّ «مكبرات الصوت جاهزة والجمهور يملئ المدرج»

لم أستوعب أن بالفعل القاعة تمتلئ على أخرها إلا عندما دخلتُ القاعة... الجميع صفق ووقفتُ مثل الطفل التائه...لا اعلم كيف ابدأ...لكنه يجب أن اتحدث...يجب أن أصرخ ليصفق ليّ الجميع...يجب عليه إثبات ذاته أمام ذاته:

فتحركتُ ببطئ وجلستُ على حافة المسرح قُلت:

"ضع نفسك مكاني يا عزيزي" من أكتر الجمل التي تجعلني أشعر بالأشمئزاز...لماذا أضع نفسي مكانك! لو وضعت نفسي مكانك سأكون أنت! أين التجديد! أين التغيير! هل ستقضي على قوانين البشرية كلها مجرد ظرف وضعك ربك فيه....جميعنا نملك أفكار وتنفيذها صعب...

أؤمن بها...أجعلها تملئ روحك ووجدانك قبل عقلك... أجعلها تتنفس مكانك وتعيش حياتك...أستيقظ من نومك صباحا وقل «سأحقق حلمي اليوم» وعندما تنام قل «صعدت درجة من حلمي».

- قالت فتاة: الروائيين يجب أن يكون لهم خلفية معينة للكتابة...لماذا؟
- الكتابة بالنسبة للروائيين ماهي إلا وسيلة لأخراج الهموم من داخل العقل...هناك من يكتب وهو يقرأ...ومن يكتب وهو يأكل... الكتابة مطهرة للروح...عظيمة للعقل...لا شئ يفوق جمال الكتابة للكاتب...أما بالنسبة للخلفية المعينة التي يعيش فيها الكاتب فهي أبسط حقوقه! فأنتم يا معشر القراء تصفقون لنا وتعيشون بين ثنايا حروفنا المتواضعة! فأتركونا لنعيش الحالة المحببة لقلبنا لنكتب لكم ما يحبه قلبكم.
- سأل شاب: وهل الكتابة أهم أم القراءة؟
- القراءة نوع من أنواع الكتابة...فأنت تكتب على عقلك حروف الكتاب...تسطر كراس عقلك بحروف قرأتها

ـ هل جربت كتابة الشعر؟

=لها...كتبت لها شعراً...أما الباقي قصص قصيرة حزينة!

ـ ألقي علينا بعضا منها

=لا...لقد قيلت لها وستظل لها...بيني وبينها...بين شفتيها وشفتي

ـ ما الفرق بين الحب الإدعاء!

=الحب مشاعر صماء...تظهر على العينين والشفتين في الحديث في رعشة اليد في السلام...اما الأدعاء هو الكلام الكثير الذي لا يسمن ولا يغني من جوع...والتفريق بينهم سهل...أنظر لغيرها يومان وستحبها وتنسى الأولى!

فرفعتُ يدي اليمنى وقُلت:

ـ أنا من ضيع في الأوهام عمره...قالها عبد الوهاب منذ زمن بعيد لكنها حقيقة مؤكدة حتى تقوم الساعة...نحن نضيع الكثير من ساعات عمرنا في الأوهام...أوهام الحب أوهام العمل..أوهام الخوف..أوهام الدراسة..جميعها أوهام..فلنترك أوهامنا جانبا ونعيش حياتنا بشكل صحيح...نحب من يدق له قلبنا..ونكره من يتشائم منه قلبنا..ونعيش كباقي البشر!

- يعشق الجميع كلماتي الجارحة ولا يعلم الجميع أنهم السبب فيها...يحبون صراخ المطرب والممثل ومدرب التنمية البشرية على المسرح...يحبون أن يتحدث الناس بلسانهم... أعطوني لسان فلان وسأكون سعيد...أعطوني عقل فلان وسأجني المال...أعطني زوجة علان وسأغزو العالم! وعندما يأخد لسانه يكون أخرس..والعقل يتوقف عن التفكير و الزوجة ترفع عليه قضية خلع لأنه أخرس وعقله متوقف عن التفكير!

جميعنا نملك نفس الحواس لكن بنسب مختلفة أو تقل مع الزمن...زماننا دوار وعقلنا يكبر يوميا بنسبة معينة حسب خبراتك الحياتية...الطفل يصبح شاب والشاب رجل والرجل كهل والكهل مرحوم والمرحوم عظام والعظام تراب والتراب يتحول مرة أخرى لوضعه الطبيعي كبشر يوم الوقوف بين يدي الله!

نادى عليّ منظم الندوة...ونبهني أن كلامي جارح قليلاً

دخلتُ المسرح وأنا أنظر للأرض:

أبتسمتُ وقُلت:

- نحن عبارة عن حزن ممزوج بهموم مصحوب بالقليل من عفن الدنيا...الدنيا تعفنت بسبب نيتنا السيئة...الدنيا أصبحت مكان مؤلم... مرهق...مميت...الدنيا الحقيقة هي الموت... نموت فداء أرواحنا النظيفة...الحياة فتاة تحرم عليك...لا يجوز معاشرتها بالحسنى...يجب أن تعاشر بالقوة والهوان والذل...الحياة فتاة لمسة يدها شرف، عفة، كرامة...لا يجوز أن تمسك يدها إلا بعد زواجك منها..ولن تستطيع الزواج منها لأن مهرها غالي...الموت، هو المهر.

أغانينا المفضلة لا تفعل شئ سوى أن تعيشنا في حالة فريدة من نوعها لمدة الأغنية...ثم تتركنا على جبل كبير يتعدى طوله الألف متر ليأكل الطير من رأسنا...أتذكر في يوم حبيبتي ألقت على سورة عبس ألقيت عليها سورة الأخلاص فكانت الخلاص..سمعت منادي ينادي يا قوم جرس الكنيسة معطل هيا للصلاة...حينها شعرت بريح صرصر عاتية في قلبي قرأت نبؤات الكتاب المقدس من التوراة...سمعت ضحكة مُحمد فقرأت عم يتساءلون عن النبإ العظيم...حينها أيقنت أنها النبإ العظيم!

هناك دروس مجانية نتعلمها يوميا من الحياة....نتعلم منها البكاء والصمت والحزن والجشع والأنانية...أذا كنت أناني لا تخف! تخف أن كنت لا تمتلك صفة الأنانية... لكنك يجب أن تكون أناني بطبعك...لتعيش لتأكل لتشرب لتتنفس...لو كنت في غرفة مغلقة أنت وأقرب الناس لك والأكسجين لا يكفي إلا لشخص...ستقتل أعز الناس لك لتعيش! ثم ستصطدم في النهاية بأسد جائع ينتظرك عند باب الخروج! تلك هي الحياة...أنانية ثم موت..أو كرم مفرط ثم جنون!

الروايات والكتب ماهي الا وسيلة لعينة للهروب من الواقع المتعايشين فيه حاليا...واقعنا هلك ثم هلكنا نحن... أصبحنا ضائعين...مشتتين...جوعانين! شتان الفرق بين الجوع والمجاعة؟ يصل بنا المعنيان لنهاية واحدة؟ وهي الموت؟

لقد صرخت لكم من قبل في رواية لي "دع نفسك للموت لأنه الحل الأمثل للراحة...عندما تتكاثر عليك خيانة أصدقائك مع أعز شخص لك...دع نفسك لعذرائيل.. فهو ملك الراحة الأبدية" فقلتم لي "أمجنون أنت؟...من سيخون صديقه؟"

ثم صفقتم لي عندما ذكرت لكم أمثال!

ثم رفعتُ نبرة صوتي قليلا بعد أن أغرق العرق وجهي بالكامل قائلا "أسف...فقد سخر مني الكثيرون وراهنوا على فشلي...وطعم النجاح بالنسبة لي الصراخ هنا"

- لا يمكننا أن نعول كل شئ على الدنيا...نحن أيضا ملومين...تركنا كل شئ لاقدار لا يمكن تغييرها الا بالدعاء! لا ندعي إلا عندما نشعر بمأزق!

فقال شخص من الجالسين: ما الفرق بين القدر والنصيب؟؟

- القدر هو ما كتبه الله لك...والنصيب هو التغيير الحاصل بسبب حماقتنا...يمكن تغيير النصيب بفعل واحد في المواقف...أما القدر لا يمكن تغييره إلا بالدعاء
- ما أعظم شئ تعلمته؟
- أن الموت هي الحقيقة الواحدة المؤكدة في الحياة...والباقي كله نسبي متغير!
- هل متَّ من قبل؟

ـ متُّ أكثر مما عشت...مت عندما تركت نفسي
بنفسي لحماقاتي...متُّ عندما صرخت في أذن
المجتمع أنني حر فأجابني لا..لست حر!

=تحرك رجل مُسّن بكرسي متحرك تجاه المسرح
وقال: لن تكون حر طالما لم أعطيك أمري

صرختُ فيه: لا أنا حر دائماً وأبداَ

=لن تكون حر...لأنك مجرد حبر على الورق

ـ لن تسحبني مرة أخرى للورق!

يجلس المسن أمام مكتبه ويكتب قصة «شاب حصل على الكثير من الجوائز في مجال الرواية والقصة القصيرة فأصبح محاضر كبير والجميع يهتف بإسمه...لكنه تمرد على كاتب القصة من الأساس...فظن نفسه حراً...في نهاية قصته سأقف أمامه وأواجه بالحقيقة الكاملة أمام جماهيره الكبيرة»

لماذا سحبتني لداخل الورق مرة أخرى؟

=وجودك في الخارج خطر عليك...ستورط نفسك في مشاكل لا حصر لها...أنت تتحدث مع الجميع على الجميع وكأنك أله لا تخطئ...وأنت وجودك من الأساس خطأ

ـ لكنني أول شخصية من رواياتك تخرج وتهرب من الورق.

=أدم أول بشري ورط الجميع من بعده

ـ هل يعاقبنا الله على أكله من الشجرة؟

=الرب أعظم من أن يعاقب حمقى مثلنا

ـ أريد أن أعرف سبب إعاقتك

ظهر على وجه الرجل الكبير التقلب المزاجي المفاجئ...وقال له...لا لن تعرف! ثم هدأ قليلا وقال « سأعرفك على شريكتك في الرحلة

ـ شريكتي! رحلة! أي رحلة؟؟

=رحلتك لترجع شخصية في الرواية مرة أخرى!

ـ لا أريد خوضها

ـ ليست إختيار...أمر ويجب أن ينفذ

=ومن أصدره؟

ـ أنا

=ومن أنت؟

ـ أنا من جعل للجميع أدوار...أنا خالق القصص..
أنا القلم الأسرع في سباق الأقلام!

=والى متى سنكون في هذا الطريق؟

ـ حتى يكتشف الجميع القمر الغائب

=وبما أنت خالق القصص...متى سنكتشفه؟

ـ عندما تطهر قلبك من الشكوك والظنون أنني خالق القصص!

ظهرت فتاة قصيرة شعرها أسود قصير وعيناها دائرية زرقاء، جلست على الكرسي المقابل ليّ،

فقالت: أأنت المحاضر؟

: نعم...أنا المحاضر

ـ المتمرد!

=هززتُ رأسي بالإيجاب «المتمرد»

ـ رحلتنا طويلة...أتمنى أن تفتح عقلك لأحداثها

إحدى المقاهي المشهورة في منطقة التحرير جلستُ أنا وهي

قالت هي = أتظن أننا مُختارين من الله لنكون نحن؟

ـ اختار الله جميعنا لنكون جمعينا، لم يفرق الله بيينا بأي شكل من الأشكال، نمتلك نفس العقل، القلب، لكن الاختلافات الفردية التي بيينا هي من تجعلنا مختلفين! هل رأيتِ كلب من قبل يمشي على اثنين، أو إنسان يمشي على أربع!

=لا...سأقص عليك أصعب أحساس شعرت به "عندما شعرت أن عقلي مكبل بسلسلة معدن كبيرة وأن شرطة الفكر تقف على تفكيري لتقبض على أي فكرة جديدة أو معلومة تدخل عقلي"

ـ من؟ من شرطة الفكر؟

ـ فقالت هامسة في أذنه "هو...هو من يكبل عقلي بقلمه"

= قُلت بنفس طريقتها "من هو؟"

ـ هو...نفس الشخص الذي أخرجك من محاضرتك ليفرض عليك قوته

=الكاتب؟

- لا..الراسم

=أي الراسم؟

- نحن عبارة عن رسومات في مسلسل أطفال، نلعب مع الأطفال ونرسم على وجوهم الفرحة!

=ألسنا شركاء في رحلة الحياة؟

- الحياة من أساس لا تريد شريك! الحياة شريكها عقلك.

=من يكون الراسم إذًا؟

- هو من يرسم وجوهنا بالفرحة والبهجة... والبعض يطلق عليه لقب صانع الحياة

=أيوجد شخص يصنع الحياة؟

- الحياة الأشخاص هم من يصنعوها، جرب أن تعش لوحدك! الحياة ستكون مملة، كئيبة، حزينة...حماقة البشر وأفعالهم المجذوبة هي من تجعل للحياة طعم...تخيل مثلا لو لم تسمع عن حالة قتل كل يوم! ستشعر بالملل، تخيل أن العالم أصبح مكان سلام...لا يوجد فيه جرائم

أغتصاب، قتل، سرقةاذا لم تسن السكينة جيدا
قبل أن تقتل، ستؤلم نفسك لا الضحية

=أتعلمين من أنا؟

ـ أنت من اختارك الراسم لتكون الفيلسوف الجديد له

=وأنت؟

ـ أنا من رسمته...ثم رجعت بظهرها للوراء وسحبت القليل من النيكوتين في صدرها وضحكت وقالت "أنا أقل بكثير يا صديقي أن أكون شخص غير نفسي»

=وأعتقد أن نفسك تستحق أن تكوني لها فقط

ـ لقد أهلكتها في فصل فاشل من الرواية

=أي فصل؟

تغلق الأضاءة وتفتح مرة أخرى:...تتحرك الفتاة بشعرها الطويل في أحد أحياء المعادي...تدندن أغنيتها المفضلة...تذكرت نسيان هاتفها في المنزل، فلم تهتم وأكملت سيرها... «أغلقت الاضاءة مرة أخرى»...سريرها الطفولي في ركن من الغرفة

ـ أنا الفاسقة يا صديق...أنا الفاسقة التي ماتت في نهاية القصة، التي يقول عنها الجميع كافرة وزانية، توبتي جعلتني أجلس معك الأن

=صرخت «أنحن أموات؟»

ـ نعم...أموات في أعين الأحياء...وأحياء في أعين الموتى.!

=لغز؟

ـ الألغاز حرام في مذهبي.

=وما مذهبك؟

ـ الصراحة

=أريد حل للرجوع لحياتي الطبيعية!

ـ سأعرفك عليه

=من؟

ـ من في يده حل الرجوع لحياتك

بعد مشي أقل من نصف ساعة في شوارع وسط البلد... دخلنا بيت قديم متهالك...فتحتُ باب البيت بسهولة، رجل كبير يجلس أمام مكتبه وأمامه المئات من لفافات التبغ المُتهالكة..قال بصوت قوي:

ـ كنت أعلم أنكم ستأتون لي..فنظر لي وقال... وجهك عليه علامات الدهشة...لا تندهش.. سأخبرك من أنا...أنا الزمن...أنا عمري تخطى حاجز المائة وخمسون عام.

سأخبرك بقصتك بالتفصيل من أول جدك وصولا لك.

جدك كان من بشوات البلد...زوجته...أمينة هانم... لازلت أتذكرها حتى الأن...دلالها الذي يزيد جمالها جمال، صوت خلخالها يزلزل قلوب الجميع...صوت حنجرة جدك كانت أقوى من مزامير الحرب...زوجته كانت حلمي الدائم...لكنه أنتصر علي بقوة دكان النحاس، من أشهر الدكاكين في مصر القديمة حينذاك...وأنا كنت بشكاتب في المحكمة الإبتدائية، وهي طالبة في كُتاب الشيخ عبد الباسط البحتري...رأيتها أول مرة عندما طلبت مني أختي أن أوصل بنتها للشيخ...كان عمرها لم يتعدى الخمس عشر عاما...سألت عليها والدتي رحمة الله عليها، قالت سأتشاور مع والدك عليها...ففرح والدي بإختياري لها، لكن أهلها رفضوني بحجة أنها لم تتم الثامن عشر بعد..فصرخت في وجه أبي «لكنها تمت الخامسة عشر...وجاءت لها أعراض الفتيات الكبار" فقال لي أبي "أهلها يريدون ضابط أو وكيل نيابة أو شخص من عائلة النحاسين"

فصرخت "تبا للنحاسين وللضباط...أنا بشكاتب"

ويوم عيد ميلادها الثامن عشر كتبت كتابها على احمد النحاس، الأبن البكر للعائلة.

تزينت الحارة والحارات المجاورة وجاء الجميع ليبارك إلا أنا...سافرت الأسكندرية بعيد عن الكل...فكتب لي أخي الأكبر الوصف لازلت أتذكره حتى الأن.

"تزغرد النسوان في الحارات، الشربات يوزع على الفقير قبل الغني، الخبز المملوء باللحم البقري مع الأرز، مهرها عبارة عن قطع ذهبية كبيرة، أرتدت في يدها الكثير من الذهب، قالت السيدات أنها تحنت من نوع حنة صنع خصيصا لها، الرجال يتباركون ويتراقصون بالعصا، يقال أنها ستعيش في حي العباسية الشرقي المخصص للأغنياء، رائحة الزبد البلدي تملئ الشوارع بسبب الفطير المشلتت والجبنة القديمة و العسل الأسود الطازج...بالتأكيد ستتفاخر عائلتها اليوم ولمدة شهر بدماء عذريتها الطاهرة"

ثم قام من مجلسه ونفخ دخان سجائره في وجه الفتاة وقال:

"دماء عذريتك منذ قديم الأزل شرف للأسرة بأكملها، ثم نظر ليّ وقال، سأكمل لك قصتك"

مررت ذات يوم تحت بيتها فسمعته ينادي عليها «يا أمينة...تعالي اغسلي قدمي»

ذُهلت من هول الكلمة، أمينة تغسل قدم النحاس ليس عيبا لأمينة...لكن شرف لقدمه، هي الجمال بذات نفسه، سمعت في نفس اللحظة هتافات تناصر لسعد، لا أريد سماع هتافات لسعد...أريد هتافات صوتها"

فصرختُ «أجئت هنا لتعاكس والدة والدي!»

قال "أخرس يا ولد..سأكمل لك "

- هتافات سعد يومها لم تحرك ساكنا إلا عندما سمعت صوتها في صف النساء «سعد سعد يحيا سعد»

شعرت بالثورة بالفعل..لكن داخل قلبي...سأتم عامي الثلاثين بعد أيام قليلة يجب أن أتزوج، كلمت والدتي على فتاة معينة ابنة بشكاتب أكبر مني سنا، فتزوجتها بسهولة، راعت الله في، لم تتوان لحظة عن إرضائي أو سعادتي، صرخت بها مرارا وكل مرة تأخذني بين ذراعيها بهدوء مرعب، تشعر أنها تضع سكين في منتصف عمودك الفقري، وكانت تبكي وتقول «أنا بحبك، لا تجعل الشيطان يدخل بين حيز ذراعي وصدرك»

جدك يا علي كان مزاجي، مزاجه متقلب بصورة لا يمكن تخيلها، يضرب زوجه الساعة الثانية عشر ظهرا ويأتي لها بالحلوى الساعة الواحدة، وجدتك أحتملت، وصبرت وصابرت، أمرأة ذكية، كانت تهرب من أمامه لحظة الغضب وتقترب منه لحظة الفرح...خلق الله في رحمها عمك ثم عمتك ثم أبوك ثم عمك الأخر ثم عم لك مات بعد ولادته بسويعات، أبوك دائما كان يعاقب بسبب حماقته وأفعاله الصبيانية التي يكرهها جدك، أتذكر أنني سمعت مجلس عائلي قبل وفاة جدك بأيام وهو يخاطب أولاده

"يا أبنائي...خلقكم الله أربعة مثل مواسم السنة كونوا عصبة ولا تفرقوا، لا تكونوا كأخوة يوسف...كونوا كيونس وأخيه، علمتكم القرأن والسنة والأحاديث والكلام والفقة والشريعة والشرع والقانون، ومنكم من تخصص في الطب ومنكم المهندس ومنكم النحاس مثلي والأستاذة التربوية، يا أبنائي، أمكم تاج على رؤسكم، لم أحرمكم يوما من متاع الدنيا، ولم أمنع عنكم الرفاهية كما العلام، عمري الأن تخطى حاجز التسعين، شاهدت الكثير، ثورة سعد وثورة جمال، أثناء ثورة سعد الجميع كان على قلب رجل واحد لأنهم يفهمون، أما ثورة جمال جميعهم كانوا على سلاح

رجل واحد! أيام وستختفي الطرابيش، وبعدها سيختفي الإحترام، أحترام الذات أسمى من أحترام الأخر، احترم ذاتك واحترم داخلك واحترم قلبك ومشاعرك وعيوبك»

هذا ما سمعته فقط...تزوج أبيك وهو في أول عامه الأربعين...كان يعمل بكد وتعب وشقاء، كان شقائه في العمل يعطي له رغبة في الأستمرار.

سأحكي لك ثورة جمال وثورة سعد...ثورة سعد وقفت النساء بجانب الرجال ولم نراعي حينها لحية أو طربوش أو عمة صعيدي أو يد فلاح، أما جمال كنا نُسلم لِلحًى للأمن، بدأنا نسمع عن التعذيب البدني والنفسي، أما سعد كان تعذيبنا النفسي بيينا وبين أهلنا لنمضي على الأستمارات.

"سعد سعد يحيا سعد" صوتها مازال في أذني حتى وقتنا هذا!

صف لي حال العباسية اليوم؟ هل أصبحت للمجاذيب فقط؟ هل أصبحت مفترق طرق بينها وبين رمسيس؟ وهل رمسيس مازال يقف بشموخ وعزة نفس وقوة!

تماثيلنا الأثرية انتهكت وأنتهك حقوقها المادية والمعنوية والنفسية لنا كمصريين!

في عمري كله لم أتخيل أننا سننتهك مثل الآن...البلاد جميعها احتقرتنا، صرنا غرباء عن العالم مثل الطفل المولود حديثا، كلمة من فلان تثير الشعب وكلمة من علان يستقيم بها الشعب، ورقصة من فلانة يرقص معها الشعب، وفضيحة علانة تجعل الأعمى يبصر، وصلنا لحافة الهاوية وننافس من سيقع قبل الأخر، نحن أم العراق أم فلسطين أم سوريا!

أصبحنا ننافس بعض على الفشل أكثر من النجاح، والموت أكثر من الولادة والمرض أكثر من الشفاء!

فعلا نحن أمه ضحكت من جهلها الأمم

فقُلت –منذ متى وأنت وحيد؟

=منذ أن ماتت زوجتي من عشرون عاما، لكنني لم ولن أكون وحيدا، تبغي صديقي الوحيد...نصحني أربع أطباء لا يدخنون أنني سأموت بسببه فماتوا ومازلت أنا هنا.

كتبي أصدقائي المتغيرون.أسافر في رحلة مع كل كتاب لا أرجع منه الأ في أخر حرف من أخر كلمة في أخر صفحة من الكتاب

مكتبي تعود على جلوسي عليه، نظارتي تألفت على وجهي

قالت الفتاة «لا أريد سماع أي شئ سوى قصص الماضي...من فضلك»

فضحك الرجل وقال حسنا...سأحكي لك شكل البيوت والنساء والرجال وحتى الأطفال والتعليم والحب والصداقة والزواج والموت وكل شئ!

يوم فرحي على زوجتي جاءني مجموعة من أصدقائي السوريين، رقصوا الدبكة على موسيقى شعبية عندهم في سوريا، تزينت الأحياء كلها، سمعت فلسطينيات يتغنون مع العروس

"قولوا لأمه تفرح و تتهني ترش الوسايد..بالعطر و الحنى.. يا دار هنى و بنهاية بنى و الفرح النا.. و العرسان تتهنى.. والدارِ داري و البيوتِ بيوتي و احنا خطبنا.. يا عدوي موتي... يا بيِّ مريم لا تكون عبوسِ و اسمح بوجك.. و اعطيه هالعروسه.. يا بيّ مريم لا تكون طماعِ و المال يفنى.. و الناس منفعِ"

حينها كان موسم التين الشوكي، فجاء صديقي بعربيته الكارو وحماره الوفي يوزع على الأهل التين الشوكي بعد تقطيعه بخفة ومهارة يحسدوا جميع من في مهنته عليها

ويومها عصرا دخلت الحمام البلدي في حي السيدة زينب لأغتسل وأصبح عريس نظيف ذو عطر نفاذ ليجذب زوجتي لي ليلة الدخلة، وعندما خرجت تغنى أصدقائي العرب

"طلع الزين من الحمام الله واسم الله عليه
طلع الزين من الحمام ورشو العطر عليه
طلع الزين من الحمام كل رجاله حوليه
يا أبو الحطة العقال من وين صايد هالغزال
نيالك يا أبوحطة منين صايد هالبطة"

المميز في فرحي هو مجموعة أصدقائي العرب، فمنهم الفلسطيني بعد النكسة والسوري المحب لمصر والتركي الذي هرب والده من بطش العثمانيين، فكان ينقصنا بلدة أو اثنين ونغلق الشرق الأوسط...ليلة دخلتي عليها كانت راقية، محترمة، صلينا ركعتين شكر لله على رزقنا، أطعمنا بعض بيد بعض، ونمنا بجانب بعضنا في فراش واحد، وثاني يوم أقمنا علاقتنا على أكمل وجه وأصبحت زوجتي رسميا أمام الله، ولم يرى أحدا من أهلي ولا أهلها ما حدث بيننا، ما كان بيننا ظل بيننا.

الشوارع تنعم بالهدوء، والرقي، النساء جميلات، الرجال رجال، البرقع ينير وجوههم، الخلاخيل ترقص في الشوارع، الحناطير تزغرد، السيارات تُعد على أصابع اليد الواحدة، تتغنى البنات بأغاني رمضان قبله بيومين، الفوانيس تُنير الطرقات، نور القلوب يغطي على نور المصابيح، الدنيا جميعها تنشد بأناشيد الحب، كان يمر بجانب بيت العائلة قطار، كنت أهرول لأنظر له، فأنه يجري كالعمر، لكن الأوهام باقية مثل البحار.

ذات يوم ضرب جدك عمتك وهي في الرابعة عشر ضرب مبرح بالعصا، فأكملت أمها ضربها بيدها على وجهها، لأنها جلست مع صديقاتها الفتيات فدخلت عليهم ضاربة الودع وكشف المستور ومعرفة المستقبل، في منتصف جبهتها ويدها اليسرى وشم أخضر اللون، فقالت لهم عما يمكنها معرفته فهرول الجميع للبيت ليحضروا لها المقابل، فمنهن من جاءت بحبات تمر والأخرى بطبق ملئ بالزبدة البلدي وعمتك أحضرت فرخة مذبوحة، وبعد الإنتهاء من الكلام الشيق ومعرفة المستقبل كما تتدعي قالت لها عمتك «أريد أن أعرف ما هذا؟» وأشارت على الوشم

قالت يمكنني أن أرسمه لكِ لكن بمقابل عال، هرولت العمة للمنزل أحضرت وعاء نحاسي كبير مرصع بقطع فضة تركية، رسمته لها في يدها اليمنى فبكت من الألم، ودخلت بيتها نظرت أمها ليدها المجروحة فتوعدتها بالضرب المميت، بدأ الوالد وأكملت الأم.

أتذكر حرب فلسطين بكامل تفاصيلها، بكاء الجنود، صراخ الأمهات.

قالت الفتاة: لا أريدك التحدث عن الحروب، تحدث عن جمال مصر نفسها.

- كانت تنعم مصر بالوحدة والقوة والطمأنينة، مصر كانت عبارة عن صوت أم كلثوم وقت العشاء وصوت عبدالحليم بعد العصر.

أتذكر صوت أمي عندما نادت على أخي ليحمل الحقائب للسيارة لنسافر الأسكندرية، كانت عروس البحر بالفعل، راقية، تنعم بالهدوء، تتحرك وقت الغروب على البحر وتنسى همومك أمام البحر.

- تحركت الفتاة لجريدة قديمة موضوعة على منضدة في الغرفة وقرأت خبر وقالت "هل الزواج القاصرات كان متاح قديما؟"

ـ فقال الرجل "زواج القاصرات كان في الأرياف فقط، أما القاهرة والمدن لم ينتشر فيها هذا الظلم الأنثوي، المرأة تمتعت بكل حقوقها في مصر مؤخرًا، والبلاد العربية تباعًا، أخو أبي لا اطلق عليه عمي بسبب أفكاره الشاذة و اراءه السلبية تجاه كل شئ، حلل الخمر وحرم تحريمه، لم يتفاهم أبي معه و طرده من منزل العائلة..كُنا نشرب الخمر و نفس الوقت نقوم بتحريمه..التناقض في النفس الأنسانية لا يضاهيه تنافس.

أستاذ علي، أستاذ!

ـ رفعتُ رأس للمنادي، «عذرا»

قال المنادي «باقي نصف ساعة فقط»

ـ "لا...سأذهب للبيت، لن أكمل المحاضرة"

تحركتُ تجاه باب الخروج، تحركت والدتي خلفي، لم نتحدث، تكلم فقط محرك السيارة، قالت أمي بعد صمت «أأنت بخير؟»

ـ لا أعلم، رأيت أشياء كثيرة لا أدري لماذا رأيتها! من أنا يا أمي؟

فقالت بلهجة باكية، لقد تمنيت من الله أن يرزقني بإبن فصيح اللسان، أن يتحدث ولا يخف لا يخشى مواجهه البشر، جئت أنت يا علي، رزقني الله بك بعد دعاء كثير.

توقفت بالسيارة فجأة ونزلتُ منها أنظر حولي، قالت أمي»ماذا بك يا علي؟»

- أمي، من هم عائلة النحاسين ومن يكونوا وكيف يرادوني أحلام لهم؟
- كيف عرفتهم؟ ومن أين جاءت لك سيرتهم؟
- عندما غفلت في الحفل رأيت أحلام لم أفهم منها شئ

دقائق صامتة، لا أحد يتحدث سوى ضجيج السيارات، وصلنا للبيت، ترجلت هي سريعا، دخلت المنزل ومنه الى غرفتها، أحكمت غلق بابه خرجت بعد دقيقة تحمل صندوق صغير وقالت: "لم يفتح أحد هذا الصنوق إلا أنا، ثم أنت... أفتحه"

فتحته، مفتاح كبير الحجم نسبيا، أكملت «ستذهب لبيت جدك الأكبر، ستفتح بابه بهذا المفتاح، روحه تنتظرك منذ مئات السنين»

ذهلتُ من هول الكلمة! قُلت بتلعثم «من ينتظرني؟»

قالت هي بحزم "جدك...أحزم أمتعتك، ستذهب لتقابله"

"أين يسكن جدي؟"

" قصر في حي الزمالك، يطلق عليه السكان هناك القصر الكبير، ستذهب لهناك ومنه على بيت جدك، أحترق جسده في هذا المنزل، وقبل موته بثوان صرخ بعلو صوته بأنه سيكشف أسراره كلها لحفيد واحد فقط، وأنت هو ذلك الحفيد يا علي!

شعرتُ بأنني تحت تأثير مخدر قوي، تحرك جسدي لوحده تجاه سيارتي لهذه الرحلة الطويلة الشاقة، تحركتُ في منتصف الليل بالضبط، عقلي لا يكف عن التفكير في كلام والدتي، ومتى ظهر هذا الجد في حياتي ولماذا أنا!

"توقف، توقف، توقف" سمعتُ هذا الصوت في سيارتي، «توقف، توقف»

توقفتُ بطريقة مخيفة، ترجلتُ من السيارة، لقد دهستُ قطة قبل وقوفي بثوانٍ

ذهبتُ اليها ببطئ، مجرد قربي منها أختفت القطة!

وقفت بسيارتي بعد أمتار لأشرب كوبا من القهوة، سمعتُ في الراديو «يستعد محافظ القاهرة لهدم قصر العمدة المشهور بسبب شكاوى الأهالي من أصوات غريبة تصدر من داخله»

أخبرتُ العامل "يشتكي الأهالي من صوت داخل قصر قديم، ماهذا الخبر الساذج؟"

فقال العامل..أين سمعت هذا الخبر

ـ من خلال هذا الراديو، وشاورت على الراديو

=فضحك العامل وقال "أي راديو، الست أم كلثوم تغني منذ ساعتين بدون أنقطاع لأي نشرة أخبار"

تغيرت ملامحي بالكامل وأتصلتُ بوالدتي لأحك لها، سمعتُ بكائها المكتوم وهي تقول «أنت المختار يا ولدي، أنت المختار»

، القصر الكبير، حديقة كبيرة مُمتلئة بالأشجار، لم يسألني أحد عن سبب دخولي القصر، كأنهم يقولون لبعضهم «لن يستطيع فتح بابه وسيخرج مثل المئات من قبل»

تحركتُ للباب الرئيسي، مددتُ يدي لفتحه فَفُتح بكل سهولة، دخلت، أغلق القصر بابه، يشبه قصور الأفلام القديمة، صورة كبيرة معلقة على الحائط للجد، وخرج

صوت أم كلثوم "يا حبيبي أنا كلي حيرة ونار"، تحركتُ تجاه الجرامفون، أغلقته، فُتح مرة أخرى «ونار»

صوت جاء من أعلى غرفة في القصر وأفخمها باباً، يا ولد يا علي تعال

تحركتُ تجاه باب الغرفة بهدوء، ثم سمعتُ ضوضاء في الأسفل، الكثير من الرجال يقفون مع الكثير من السيدات، كاسات الخمر في يدهم كالماء، دخان السجائر يملئ المكان، وصوت عبد الوهاب يخرج من الجرامفون، والبعض يهمس بأن تحية كاريوكا جاهزة للحفل، باب الغرفة لوحده فُتح والصوت نادى "ادخل يا علي، أدخل"

الغرفة بسرير واحد بأعمدة فضية، النافذة تطل على النيل مباشرة بستائر فاخرة، الشمع الأبيض يملئ المكان، حائط الغرفة اليساري أسود اللون، خرج من خلفه الجد بجسد محروق، أنتفض جسدي وهرولت تجاه باب الغرفة، طمأني أنه جدي ولن يؤذيني، وأمرني أن أجلس

قال الجد:

-لا تخف يا ولدي، لا تخف، عندما توفت زوجتي أصبت بالجنون، توفت في نفس يوم الحفل الذي رأيته تحت، جاءت لها غيبوبة السكر فماتت، لم أتمالك أعصابي

وقُمت بحرق نفسي لأنني لن أستطيع العيش بدونها، وقبل موتي بثوان سمعت منادي ينادي في أذني «ستحكي لمن أسرارك؟» فقلت لحفيد ستختاره روحي، لم تذهب روحي لخالقها دفنت تحت التراب وروحي هنا، أغلقت أبواب القصر من الداخل فلم يستطيع أحد الدخول، أنا لست جدك، أنا أبو جدك من أمك، جئت لأمك في منامها بهيئتي الطبيعية وأخبرتها أنك ستكون المختار، منذ طفولتك وأنت فصيح اللسان، قوي الشخصية، مسيطر بطبعك، أحببتك، ها انا الآن، سأقص لك كل شئ عني وعن حياتي، بالتأكيد تتذكر كلامي معك أثناء منامك، كان كله كذب في كذب، فأنا أحمد النحاس الأبن الأكبر لعائلة النحاسين، لطالما كرهت عائلتي وتمنيت إلا أكون منهم، الشخص الذي حكيت لك عنه كان يعشق زوجتي بالفعل، المال يفعل كل شئ يا صديقي، قتلته، نعم...قتلته، وأعطيت لأهله تعويض مناسب يكفيها لتعيش عمرها كله في ثراء فاحش، منذ قديم الزمان والمال هو المسيطر، قريش كانت تتعامل بالمال، لم يخف السادة من محُمد مثلما خافوا من قوة خديجة واسمها في التجارة، تلك النظرة المرسومة على وجهك أعرفها جيدا كانت نظرة جدك لي في وقت خوفه، بالتأكيد خائف من

شكلي، وجهي وجسدي يرعبوك، لا ترتعب مني، تجول في القصر، نم أذا أردت، الأكل مجمد في المبرد، عش كأنك في بيتك، لا تخف مني يا ولدي ثم أختفى الجد تماما!

تحركتُ بكل هدوء في القصر، أنفاسي هادئة مستقرة، كأنني أتحرك في بيتي، صوت موسيقى أغنية أنت عمري لأم كلثوم خرجت من الجرامفون، أمتلئت باحة القصر الداخلية برجال وسيدات يشربون الخمر ويشاهدون تحية وهي ترقص، فسمع رجل يقول «يا قدرية هانم، لن أبيع شقة الأسكندرية بأقل من خمسة وعشرون ألف»

فقالت السيدة "المبلغ عال على الشقة يا بية، مساحتها مائة متر فقط"! وقفت بجانبهم وهم يشاهدون تحية كاريوكا، قُلت لنفسي «راقصات هذا الزمن جميلات، ياليتك تأتي معي يا تحية لتعلميهن"

أختفت الحفلة، جلست على كرسي لوحدي أفكر "كيف وصل بي الحال لهنا؟ لقد جننت رسميا، كيف طاوعت قلبي وعقلي وجسدي! ومن هذا الرجل المحترق وكيف لم أهرب منه! وهل أمي فقدت صوابها لتلقيني هنا؟ يجب أن أخرج من هنا»

ذهبتُ للباب الرئيسي للقصر، لم أستطع فتحه صدمني صوت جدي من خلفي

"لن تستطيع الخروج يا علي، لن تخرج قبل أن تذهب روحي لجسدي تحت التراب، لن تخرج، مفتاح الباب معي، ستأخذه في الوقت المناسب، والأن تعال لأنه لك قصتي»

تحركتُ تجاهه، صعد الدرج، جلستُ أمامه قال الجد

"بعد زواجي من جدتك الدنيا تغيرت معي تماما، عاملتها بلطف ولين بعكس كل الرجال في وقتنا، عاملتها بالحسنى وعاملتني أحسن، غسلت قدمي وغسلت قدمها، كانت ثروتي الشخصية زهيدة معها أصبحت مليونير، مشاريعي في مصر كلها وخارج مصر أيضا، سافرنا سويا أغلب البلاد العربية والأوربية، جلسنا مع جميع الفنانين والفنانات والراقصات والموسيقين والمؤلفين، وتمنيت أن يكون لي حفيد كاتب مثلك، مثقف، قوي، يتحدث بطلاقة ولا يخف من أي شئ حتى لو روح محترقة مثلي، أسراري معك تتلخص في كلمتين، الأولى: مفتاح خزنة ثروتي في البنك ١٩١٩/١/١

والمفتاح التاني ستجده على الأرض في غرفتي بعد أختفائي مباشرة، ستعيش معي يومان، يوم لأقص لك كل شئ ويوم وداع.»

صرختُ "ماذا تريد مني؟ وماهي القصص؟"

قال "أسرار الكنز الأعظم، الأعظم من ثروتي الفقيرة، منذ ستون عاما تقريبا أعطيت ما يقارب خمسون ألف جنيها لدجال ليجعلني أجلس معك، وتنبأ لي بالموت حرقا وزوجتي في غيبوبة، والذي ساعده على ذلك"

صرخت: ماهو؟؟

"جزء من روحك"

ـ توضيح أكتر من فضلك!!

"من ممتلكاته الشخصية جن قوي سافر للمستقبل وأحضر جزء من روحك أثناء ولادتك وهذا الجزء الخاص بالفقر، أخذ منك الفقر..لن تكون فقير أبدا ما دمت حياً"

ـ الله هو من يرزق وليس الجان

"ونعم بالله يا ولدي، لكن الجان يمكنهم فعل أي شئ، وأنت بالتأكيد تعلم قوة سيدنا سليمان، أغمض عينك قليلا وقص علي ما شاهدت"

"مسجد بقبة كبيرة، ساحة كبيرة أمام باب دخول المسجد ممتلئة بالأحذية، باب المسجد كبير مزخرف بأيات قرأنية بخط عربي أصيل، يصلي من يصلي ويناجي المريض ويصرخ من يصرخ ويبكي الحزين يشتكي المظلوم، المحراب كبير للداخل، تحركتُ داخل المسجد وضع رجل كبير يده على كتفي، وصلنا للمحراب، فتح الشيخ باب المحراب بمفتاح معلق على صدره، وقذفني داخل المحراب، نور ساطع من جهه اليمين، رجل بلحية كبيرة تصل لمنتصف الصدر مد يده لي بالقليل من الطعام، أكلتُ على استحياء، فقال الرجل بعد أن وضع يده على رأسي: أنت مبارك من كل سوء وشر، أنت العزيز في زمن الذل.

روحك مرسلة لنا منذ عشرات السنين، روحك طاهرة لا ينقصها شئ، روح نظيفة، لامعة، عزيزة، تتنفس كما يتنفس الطفل، الفتاة التي أحببتها وتركتك كانت شر لك، وبعدها عنك خير، أبعدها حاميك عنك، وأنت لم تفهم، دائما تستقبل الأخبار الحزينة على مضض، مع أنها سعيدة بالنسبة لمستقبلك، تعال معي...وضع يده عليّ وتحركتُ معه، سلالم كثيرة نزلناها، أجلسني أمام سيدة كبيرة السن

عينيها مغلقة، فتحتهما مجرد أحساسها بيّ: جدك هو مصدر سعادتك وشقائك، جدك هو مصدر سعادتك وشقائك، استمع لكلامه و أستمع لنصائحه، لا تخف منه..هو معصوم من أي شر أو سوء..معصوم من اخطاء البشر، جدك من اوائل الرجال استخدام السحر للمستقبل.“

فتحتُ عيني مرة أخرى فإذا بجدي أحضر ليّ كوبا من القهوة وقال «ماذا رأيت داخل عقلك؟»

ـ “ما الطريقة قتل الميت؟“

ضحك الجد بأستهتار وقال «هل تريد قتلي!، أنس يا ولد، قتلي من المستحيلات»

ـ ومالذي يجعله مستحيل؟

ـ أنني روح قوية، روح لن تموت الأ بأمري

ـ هل أنت أله مثلا؟

ـ لا يوجد الأ أله واحد أحد، لكنني من أحبابه

ـ الأطفال هم من أحباب الله

ـ وأنا طفل، ثم قام من مجلسه ورقص كالطفل على أنغام ليلى مراد ثم قال ”أدخل داخل عقلك وأنظر لطفولتك بالتفصيل“

صرختُ وضربتُ الأرض بيدي ووضعت يدي حول رأسي وصرخت من الألم، الصورة مشوشة، العرق يتساقط من جبيني، عيني اليسرى ترى الجد يرقص، واليمنى والدي يحرك يده يمينا ويسارا في وجه أمه، ثم سقط مغشيا عليّ على الأرض

"شقة متوسطة الحجم، الأم في المطبخ تطهو طعام الغذاء، الأخت الكبرى تستعد لتبديل ملابسها والأخت المتوسطة تستيقظ من نومها، والأخ الأصغر يلهو بدراجته في الشقة، يأتي الأب بعد دقائق، يصرخ في وجه الجميع ويسب ويلعن، ثم يلق طاولة الطعام

أرضا، وينزل ليغيب يومين أو ثلاثة! يبكي الأخ الأصغر، ويقسم على الأنتقام النفسي والمعنوي، تمر الأيام، يشعر الجميع بأنهم سجناء داخل بيتهم، يتحول البيت في ثوان لجنة ثم أيام طويلة لنار، نار تحرق القلوب والأجساد كما هي، تحرق العقول من التفكير، الدنيا ظلام ولا يوجد بريق أمل، ماذا يفعل الأمل مع ساكني جهنم! جهنم الأخرة أشد عذابا وألما، لكنها بالتأكيد بسبب ذنوبنا...ماذا فعلنا في الدنيا لنحترق! تردد في ذهني كلمة مريبة، مخيفة «ماذا فعلت يا أيوب ليبليك الله بكل هذه الأمراض وماذا فعلت

لينجيك الله منها؟، وماهو الله! لا يا علي أبعد تفكيرك عن هذا، الله نور السموات والأرض، فصرخت لنفسي، سحقا لأرض نورها ظلام!، الحياة أشبه بكوب ماء مقلوب على فوهته والطفل ظمآن» فتحتُ عيني على صوت ضحكات الجد وهو يقول «لقد نلت من تفكيرك يا ولد، لا تتحداني مرة أخرى»

صرختُ فيه «من أنت! من أنت؟ وكيف ظهرت في حياتي بهذه الطريقة؟»

"أنا روح يا بني، مجرد روح منتظرة أمر ربها للموت، مات جسدي ولم تمت روحي، حاولت كثيرا قتلها لكن هذا الدجال هو السبب، جعلني أعيش طيلة عمري في هذا العذاب، دع تفكيرك يصل لهذا الرجل وأقتله»

ـ "أنت تقول أنه من عشرات السنين، بالتأكيد مات!"

=لا لم يمت، أذهب لأخر الشارع الذي سيظهر أمام عينك، وستجد رجل عجوز بلحية بيضاء تصل لمنتصف صدره، ألق عليه أيات من القرأن، هو يكره كل ما يخص الأديان

"شارع طويل مظلم، رائحة الموت تخرج من الأرض، عواء الذئاب مرعب، دخان يتصاعد من الجدار الأيمن للشارع، أمرأة عارية تجلس القرفصاء ترفع رأسها وتنظر لعيوني مباشرة وتصرخ وتهرول عكس أتجاه سيري، سقطت من يدها ورقة مكتوب فيها (أهرب كما هرب الشيطان من أمام الخطاب)، وصلتُ لنهاية الشارع وجدتث الرجل المنشود، قرأتُ عليه أية الكرسي فأحترق جسد الرجل بالكامل وبقيت لحيته تصارع النار، عيني أنقسمت بالنظر في عين جدي و النار المشتعلة أمامي، صوت ضحكات سخرية تهز الدنيا من حوله، ظلام ظلام ظلام ظلام ظل يرددها صوت خفي يخرج من الأربع جهات»

أستقيظتُ وأنا مُلق على الأرض والعرق يتصبب مني، اهدأ يا بني اهدأ...قالها الجد بصوت هادئ يشعرك بالأمان.

ـ أريد التحدث مع أمي الأن!

أخرجتُ هاتفي وأتصلتُ بأمي وقصصتُ عليها كل شئ، فبكت الأم..وماذا تفعل إلا البكاء! أصبحت الدنيا في نظري غريبة، مرعبة، كلها صراخ وموت وحرق وجثث تتحرك ليلا وأرواح تتحرك صباحا، أي دنيا هذه! هل وقعتُ

في فيلم أو مسرحية مثلا! كيف تكون مسرحية أو فيلم وأنا أستيقظ والعرق في جميع أنحاء جسدي!

جميعكم فتح فاه وأنا أقص عليكم قصة علي ونجحت في أقناعكم أنه أنا.

وقف كل من في القاعة وضجت بالتصفيق الحاد على كلامي ومقدرتي على التحدث وخلق أحداث

سريعة متلاحقة هكذا!

فصرخ أحد الحضور في القاعة «أحسنت يا فتى، أحسنت»

فنظر لي علي وقال «أنت من أحسنت يا جدي».

الأكذوبة الثانية....

يمكننا أن نغفل دون أن ننام ويمكننا أن نموت دون أن نحيا، لكن الموت والغفلة والنوم متشابهين الى حد كبير، قد لا يفرق أي شخص بينهم بسهولة، وسيفرق رجال الدين بينهم أنهم الفرق بين الراحة المؤقتة والراحة الأبدية، وسيفرق السحرة والدجالين بينهم عن طريق الودع والخرافات، وستفرق الأم بينهم بكلمة «الشر

برة وبعيد»...وستفرق حبيبتك بينهم بأنكوا ستقهرونهم بالحب، والموسيقار سيصرخ عند سماع نشاذه، والطبيب يريد المشرط ليقطع أفكار الراحة المؤقتة، والمهندس يرسم عمارة مائلة، العصفور يبكي، الكروان يولول، البيت ينكسر، الأذن تصم، الأنف تزكم، الصدر يسعل، أحاسيس ومشاعر كثيرة متداخلة ببعضها البعض، من صادق ومن كاذب، من يريدك ناجحا ومن يكره لك النجاح، الأكذوبة الثانية دائما في حياتنا مثل ثاني أي شئ في حياتنا، من يزني يعشقه، من يدخن يرسم محبوبته بدخانه، من يبكي يبتسم فيتذكر حزنه فيبكي مرة أخرى، دائما رقم أثنين مميز عندي أهم من رقم واحد، الله واحد، فمن يمكنه مبارزة هذا الرقم، أما الأثنان، يا للراحة، أقول شئ فيرد علي الثاني بشئ معاكس فندخل في نقاش حار ينتهي بالسب أحيانا وأحيانا أخرى بالصمت، أما أمام المرآة ملل، تتتحدث مع نفسك فتوافقك، تصرخ فتزيدك صراخا، أما الثاني أذا صرخت ستجد أنفك مكان ذقنك في ضربة مباغتة، لذلك لا أحب العيش وحيدا، سأصاب بالجنون، ومنذ وفاة أمي وأنا مجنون، أتحدث مع الكرسي فتجيبني الثلاجة، أتحدث مع الأرض يجيبني السقف، فسقط علي سقف بيتي مرات عديدة فأنقذني

شيطاني أو ملاكي، لا أتذكر، هو كلب يعيش معي، هل الكلب يكره الملائكة؟ ام الملائكة تكرهه، ولماذا يكره شئ خلقه الله شئ أخر خلقه نفس الأله؟ الأنفس تكره الأحسن منها والحياة تكره الموت لأنه أحسن منها، والفراق يكره الحب لأنه أحسن منه، الدنيا أصبحت ملجأ لليتامى، كلاً يبكي على ليلاه وأنا أبكي على شهوري، يا من ينظر كأننا ملائكة، الملائكة لا تسير إنما تطير، البشر أغبياء، وغبائهم من جعلهم يقودون العالم.

أتذكر جيدا قصة الأسد مع مدربه محمد الحلو، قفز عليه وأصابه بعدة أصابات خطيرة ومات بعدها بأيام، من بعدها والأسد وحيد، حتى عندما أحضروا له لبؤة هجم عليها بشراسة ولم يعاشرها وبمرور الأيام قتل نفسه بنفسه، هل ملك الغاب يستسلم بهذه السهولة! هل ملك الغاب شعر بلسان «الحلو» وهو بيردد «محدش يقتل سلطان» أم أنها تهيؤات للبشر، أم أنه أنتحر بسبب شئ أخر بعيد عن الحلو! هل الله أمره بفعل هذا ليكون عبرة لنا مثل الغراب والدفن؟ لكن نحن بشر مرضى، لا نشعر ولا نستحسن إلا مرضنا، الدنيا مثل لعبة البندول، تمر وتضرب بعضها البعض، كأنها تخبرنا بأن الحياة نسبية متغيرة يا مجموعة من الحمير على

شكل بشر! يا الله أين أنت؟ أسعيد انت بهذا الخراب والظلم والعدوان، هل يجب علي ان اكون موسى لتجيبني، سأخلع نعلي، لكن جاوبني هل مازلت انت على الواد المقدس؟ هل يصلك دخان سجائري؟ هل أصلب على صدري لتجيبني يا عيسى؟ هل أصلي ركعتين وتجيبني يا الله؟ هل أشرب دماء لتجيبني يا بوذا؟ هل أقطع شراييني لتجيبني يا أبو الحسين؟ نعم اعلم انك مقدس وعال متعال، وعظيم معظم، وكبير الكبراء، لكن انا فقير، ضعيف لا قوة لي، هل أنا مسخر لشئ ما لا افهمه؟ متى سأفهمه يا أله! متى سأعيش كباقي خلقك، لازلت أتنفس بدون فائدة، أكل وأشرب بدون شئ مهم يذكر، من أنا أذا!

يوم الخلاص

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

سؤال ردده كل الناس تقريبا منهم أنا، كلما نقع في مشكلة ما نسأل أصدقائنا والأقارب، ماذا تفعل لو كنت مكاني!

بالفعل نجح السؤال وكنت أنا مكانك، أنت الأن على سرير منزلك تقرأ كتاب خفيف الظل وتشاهد التلفاز وتأكل السوداني وتشرب سجارتك الرخيصة، نعم، أسحب دخانها

داخل صدرك أكثر وأكثر، أخرجه من أنفك، ماذا شعرت؟ للأسف لن تشعر بشئ لأنك أنا، جملة غريبة مريبة توحيك بالجنون أليس كذالك؟ أنت بالفعل مجنون يا صديق، هل هناك عاقل يفعل ما فعلته؟ رفضت من أعطاك مفتاح الحياة وأخبرك أنك ستكون ملك الكون من أجل القليل من المبادئ، تبا لمبادئك، المال والنفوذ زينة الحياة الدنيا يا أحمق، حسنا سأنبئك بتأويل مالم تستطع به صبرا.

أسماء!

أسماء، إذا ضحكت أضحكت القمر، وأذا بكت أمطرت السماء، وأذا رقصت الكون يمتلئ بالنشاط، شعرها الطويل يتطاير كالسحاب وراء سيارة مودع لمنطقته.

أسماء، مع نفسها يتنفس الصباح، ومع حركاتها يدور الزمان، القلم بين أصابعها يكتب أشعار قيس لليلى، الحذاء في قدمها كالحذاء الذي يبحث عنه الملك لسيندريلا،

ربطة شعرها كربطة شعر المجاهد في سبيل الله مع جيش مُحمد، أنتظرتها كثيرا كالطفل المنتظر لحياة جديدة، تركني قلبي قديما ورحل، وهمسها بإسمي زلزل مكانه فرجع لمكانه.

ـ أين ذهبت؟

ذهبت داخل عيونك يا أسماء في رحلة مدى الحياة، فأجبت "شردت قليلا"

ـ في ماذا؟ ألم تشتاق لكلامنا؟

فأجبت" الإشتياق كلمة قليلة لما يشعر بيه عقلي من غيرك»

ـ لا يبدو عليك هذا، وكأننا يوميا مع بعضنا مثلا! "كيف ينقل الراديو إشاراته؟»

ـ فضحكت وهي تقول «نسيت الفيزياء منذ زمن»

"الإجابة لا تحتاج لفيزياء، ثم أنتِ تعلمين، لا أحب الفيزياء، إنما أحبك أنتِ، أشارات الراديو تصل الينا مثل موجات عيونك لقلبي، تنهره نهرا لأنه أنشغل بغيرك في يوم من الأيام، فأصبحتٍ أنتِ كل الأيام»

قالت بإبتسامتها المعهودة «كاذب»

قُلت وهو يمسك يدها «الكذب في حضرتك حرام، فأنتٍ كعبة رأها الكافر تاب»

أمسكت يدي بتواضع "لكنك لست بكافر، أنت فقط مشتت"

قبلتُ يدها بسرعة وقال "تشتتي لملم أوراقه حينما همستِ بأسمه"

تسارعت أنفاسها وأحمرت وجنتيها ولعبت في شعرها كالطفل.

أخبرتها "أكان عبدالحليم يوصفك حينما قال عيناها سبحان المعبود؟ عيناكِ جنة واسعة لا نهاية لها، حلمت كثيرا بالسكن فيها ولو ثوان، لن أخرج منها الأ على جنة الله الكبرى، وستكونين أنتِ حور عيني»

- صف لي الجنة والنار من مخيلتك!
- الجنة بالنسبة لي مكان يشبه الحدائق، به جزء يرتاح فيه المرهق من السير داخلها، الأشجار عالية، السماء تمطر لبناً ورأحته ورد، والأرض خضراء، واسعة الأمد تسر الناظرين، والله بحضرته وعظمته يشاهد ساكنيها وينظر للأنبياء بفخر، فينظرون لنا نظرة أمتنان، أنتم رفعتم شأننا أكثر عند خالقنا، أما النار أو جهنم حفرة كبيرة الكافرون في الأسفل وملائكة الرحمن

يقذفون عليهم الرمل الساخن ويظنون المهل ماء من العطش، والرسل ينظرون لهم نظرة خزي ولوم

قالت وهي تبتسم، تبا لمن تعشق كاتب

فقال وهو يبادلها الأبتسامة «هنيئا لمن تعشق كاتب، سوف يجعل لها الدنيا وسادة تحت رأسها ويسافر بها لعوالم لم تخطر على قلب بشر.

- ماذا تريد من الُدنيا؟
- أريدك ثم أريد أبناء منك ثم نفسي
- لكنك يجب أن تكون أنانيا وتختار نفسك أولا!
- كونك أختياري الأول معناه أني أخترت نفسي الأول.
- دعنا من هذا الكلام، ماذا ستفعل في ندوة جامعة القاهرة؟
- لا أعلم، أفكر جديا بعدم الذهاب، أشعر أنني مريض لا استطيع الذهاب.
- أذهب، سيذهل الجميع منك، فأنت عبقري، وانت تعلم أنك أحسن كاتب في الشرق الأوسط.
- لماذا أحببتني؟
- من احمق لا يحبك.

أخرجتُ ورقة وقلم و وصفتها بها.

هي «قُبلة» تحولتُ بها ل»قَبْلة»

هي حرف» ميم ألف» أمتزجت بحربي الداخلية تحولت ل»محراب «

هي ثماني وعشرون حرفًا من الرقة والدلال.

هي حرف «ج» دخلت على حبي للمال حولته لجمال!

هي «واو» دخلت على «ردّة»؛ وردة أهديتها لها.

هي قاف مرت على مُر؛ قمر يُنير الحياة.

هي فاء بكت على وادي فحولتهُ بلون فؤادي بها.

هي عين غيرت مسار «كُن» حولتهُ ل»عُكْن» داخل قلبي.

هي لام في منتصف «خوت» حولتها «خَلوتُ» بها عن الكُل.

هي المعنى الباطن في علم البلاغة؛ حُبها مرض جديد لم يكتشفه طبيب.

هي أصول الأدب العربي.

هي الحرف الزائد في كُل كلمة.

هي الحرف التاسع والعشرون.

هي تحويل القصائد من مكتوبة لملموسة.

هي نور دخلت حياة عاصٍ حولته لمشكاة.

أستيقظتُ من نومي، خرجتُ من غرفتي:

"الدنيا تلك يا أمي غريبة، تعطينا ماكنا نشاء في أوقات لا نشاء، تمنيت الشهرة أعطتني الدنيا شهرة، تمنيت المال أعطتني المال، والحب والصداقات والكلام، ماذا ينقصني لأكون سعيد، هل ينقصني قرار من الموساد الأسرائيلي مثلا؟ هل ينقصني شجاعة كافية لمواجهه غروري؟ ينقصني شئ لا أعلم مصدره سوى أني خائف، مرعوب، مشتت، أشعر كأني جدار أنقض يا أمي وحطامه يؤذي المارة، تعلمت العبرية في يومان، الأنجليزية والفرنسية والألمانية في أسبوع!، حلمت بأحلام كثيرة تحققت، تنافس المنتجين والمخرجين على أعمالي، تنافست دور العرض على أفلامي، يتعارك الأعلام على أستضافتي، الجوائز العالمية والمحلية والدولية تعاملني كأني أسطورة لن تتكرر، الجميع يهتف بأسمي، أمي، لقد حلمت بكل شئ سيحدث اليوم، حلمت برجل سيسحبني داخل الورق لأني مجرد شخصية خيالية على الورق، لكن لو كنت أنا شخصية خيالية بالفعل، فأنتي أيضا خيالية! جدي، من يكون؟ وكيف يحترق جسد ويبعث في الحياة مرة أخرى! من أنتم؟ أجيبيني يا أمي من فضلك، دائما أجد عندك كل الأجابات، أين هي الأن؟.

"حرب، حب، سلام، ضباب، مطر، سماء، أرض، موت، حياة، غرفة، قبر، ذكاء، غباء، رأسمالية، شيوعية، مُحمد، عيسى، موسى، يوسف، قميص، بنطال، ربطةعنق، الله إرهاق، لا، نعم، هي، أنت، هو، أنا، الظلام،

نور، دنيا، فانية، كرة، خشب، حديد، أمي، أبي، أخي، فراق، من، ماذا، كيف، مقعد، قاعدة، ملعب، فراغ،

ساحة، شيعي، سني، مسلم، مسيحي، يهودي، بوذي، هاتف، ورق، مقص، كتاب، رواية، فيلم، قصة،

أقصوصة، حرب، حب، سلام، ضباب، نبات، زراعة، صناعة، معركة، النور، هدي، التوحيد، الفنار،

زجاج، دماء، ماء، خروف، خرف، شيخ، شيخوخة، بقرة، جمل، حمل، حامل، بطن، نحلة، عسل، سُم،

فأر، قطة، كلب، سند، هي، ثم، أما، كأنما، ضاع، فات، شباب، العمر، الكهل، الحزن، الليالي، ليلة، ميتم،

عزا، سكين، عيار، ذهب، رحل، بعث، خان، ضاع، وجد، وجودية، الله، ملائكته، الرسل، أنبياء، هم، نحن،

هي، شروق، غروب، يمين، يسار، فوق، جهنم، تحت، جنة، أيمان، فاروق، حد، الله، ظل، قيامة، ما، الموت،

سفر، رجوع، هدوء، ضوضاء، ترحال، رحلة، كسل، أمتحان، أختبار، نجاح، فشل، أذن، يد، قدم، كهرباء، شعاع، شمس، حروق، نار، مصنع، ساعة، الحق، ضلال، رجل، أمرأة، مرئ، سمع، فهم، بعد، قبل، فوق، هي، حائط، الله.“

كلمات تكونت كونت داخلنا خوف ورهبة وحب، الدنيا في تكويننا النفساني عبارة عن مجازات، جميعنا نعيش في مجاز يبرز ويوضح المعنى ويقويه ويعطي له مضمون، درسناها في علم اللغة، درسناها في الإبتدائي حتى الثانوية، ثم دخلنا الحياة، القوة الروحية التي يبرزها المعنى نشعر بها داخلنا لا خارجنا، نحن أقوياء، نحن سند، نحن بندول معلق على الحائط، نحن خوف من الليل وملل من النهار، نحن تضاد كل شيء لكن أيضا توافقه، أنا النار وأنتِ الجنة، أنتِ موسى وأنا فرعون، أنا كافكا وأنتِ ميلينا، تركتيني يا ميلينا في بحر من الظلمات يتبعها الشهوات، بحر طويل وواسع يبكين فيه السيدات، ويلقي فيه الأطفال أسنانهم القديمة ويتمنون أمنية، فتأتي الأمنية على شكل حلم، حلم يثبت صحة نظرية فرانكشتين الذي أنتحر في بغداد، أو عزازيل الذي سيموت بأمر الله، أو سوريا التي أصبحت قطعة يتيمة لا يشعر بها إلا قلب فلسطين المنهك من البكاء، ليس

من السهل الإستيقاظ يوميا على صوت قذيفة، لا تقلق، لن تقتلك، هي قذيفة من القطن القتها أبنتك عليك لتفيق مبكرا يوم أجازتك يا كسول، برد يناير لا يساوي شيئا أمام برودة قلبك معها وهي تنتظر منك حرارة شمس أغسطس، القبلة الأولى دائما صادقة، المغفرة لن تجدي نفعا أمام ذنوبك المتكررة، لن تدخل الجنة بسبب سرقتك لخصال شعرها لتتذكرها بها، العناق يجب أن يكسر عظامها، أحقد على غطاء فرشها، فهو يقبلها يوميا من أغمص قدميها حتى فروة رأسها، كفى خداعا بإسم الدين، اليسوع برئ من نيتك القبيحة، مُحمد لن يغفر لك وأنت زاني شارب خمر قاتل مأجور تتأفف لوالديك، لا تقلق سيغفر لك الله، تخيل الجنة بدونك ستكون كئيبة يا رجل، لا لا أنا أمزح معك، ستكون سعيدة وجودك مصدر الكئابة، أبكي كما بكى نوح على ولده، وأفرح كما فرح إبراهيم بحفيده، أصرخ كما صرخت مريم في ولادتها، أهرب كما هرب موسى، ألق قلبك في اليم، أترك عقلك في الكهف.

هنا الحكمة: مَن له فهمٌ فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسان، وعدده ست مئة وستة وستون" (رؤيا ١٣: ١٨)

أتذكر أنني قرأت قصة عن دول أوروبا عام ٦٦٦ أنهم صدقوا أسطورة الوحش وخرجوا للخلاء وتركوا بيوتهم وحياتهم وأستولوا على المتاجر وسرقوا الطعام ومن كانت تحمل في أحشائها جنين أجهضته بسبب نهاية الكون وخروج الوحش، مر العام عليهم ببرودة الشتاء وحر الصيف وهما في الخلاء، حتى عام ٦٦٧ وعندما رجعوا لبيوتهم وجودها فارغة من الأثاث والملابس وحتى الآن لم يظهر الوحش، دول أوربا كاملة كانت تتميز بالغباء حينذاك، يصدقون الخرافات والأساطير والكذب، يظنون أن كذبهم حقيقة، يتهيأ لهم دنيا سعيدة بسبب خيالهم الواسع ونحن دنيا حزينة بسبب واقعيتنا، العند لا يولد إلا الكفر، والفراغ لا يولد الأ الفُجر، والمال يعلم السرقة، والسجن يعلم الأدب، والحروب تعلم كل ما سبق، أقاويل كثيرة قولناها بحجة الكلام، نرفع أي شعار الأ شعار الصمت، الصمت عظيم

الأكذوبة الثالثة بعد الأولى:

دخلتُ القاعة بقدم ثقيلة، والدي و والدتي وأختي في أول صف، تذكرتُ أن ليّ أخت واحدة، أحسست بداخلي أنني أول مرة أقف أمام جمهور، جلستُ على مقعد الضيف وبجانبي مُنظم الندوة رحب بيّ في مكبر الصوت، أنفرجت أساريري عند رؤية حبيبتي لكنني لم أتذكر أسمها، أكانت أسماء! نور! منار! لم استطع، نظرتُ لوالدتي ثم لها مرة أخرى، فنظرت لها الأم، لم تتعرف عليها، فأشارت لي بيدها عن عدم معرفتها بها، فأقسمتُ بمعرفتها وبل في قصة غرامية معها أيضا..

الصورة أمام عيني تنطوي، الكل يدخل حيز قلب الورقة على جانبها الأخر...صوت قلب الورق في عقلي؛ الظلام حل على الكتاب...

فقال العامل « قهوة مثل كل يوم أم تتغير اليوم؟"

ـ لا، قهوتي السادة، كالعادة يا سعيد

أشعل تبغه امتلأ الهواء بالدخان، حرقت السجارة يده بسبب نسيانها، امامه ملف مكتوب عليه «علي عبدالوهاب».

نوع المرض: توهم، يظن نفسه كاتب روائي مشهور
نسبة أستقباله للعلاج: ٠٪"
دخل سعيد بالقهوة قال له الطبيب

- ماذا تعرف عن علي يا سعيد؟
- علي عبد الوهاب؟ ستة أطباء لم يفلح ولا واحد منهم في علاجه، حالته مستعصية
- من الذي كتب كل هذه التقارير وجلسات العلاج؟
- د: منى عبدالعظيم
- منى! لم تنجح في معالجته!
- ألم أقل لك أن حالته مستعصية بطريقة لا يتخيلها بشر، حضرتك معك ملفه؟
- نعم، سأعالجه بأمر الله

تحرك وسط العنابر وأذنه تمتلئ بالأصوات من حوله
"أنا مش مجنون"
"مقتلتش حد"

«كفاية كهرباء بقى»

...وصل لعنبر تاء، طرق الباب بهدوء، فتحه، جلس على طرف السرير بجانب علي ونظر للحائط المُلطخ بكلمات كثيرة غير مفهومة، نحاسيين، جدي، حريق، أمي، ندوة، كاتب، ورق. جُمل فلسفية، عبارات رومانسية، غرفة فنان موهوب بلا شك.

- كيف أحوالك يا علي؟
- أجئت لتحاول معي يا طبيب رقم سبعة! لم ينجح من قبلك في إكتشاف أنني مجنون، لأني لست مجنون، اقول الحقيقة.
- لكن لا يوجد في التاريخ كاتب اسمه علي عبدالوهاب، لماذا لم تكتب الصحف عنك مثلما تقول؟
- لم أقل من الاساس ان أسمي علي عبدالوهاب! لا أتذكر أسمي، ولا أتذكر من جاء بي لهنا، لكنني أتذكر تفاصيل حياتي الكبيرة ولا اتذكر أهمها، لا اتذكر طفولتي مثلا، ولا شبابي، ولا أي شئ الا انني كاتب مشهور وكبير وغني.

ـ لكن بطاقتك الشخصية معي، مكتوب فيها أسمك وعنوانك وسنك وبحثنا في كل السجلات أسمك وعنوانك لم يتغيرا، قرأت كل ما قصصت انت مع الأطباء السابقين منذ يوم الندوة مرورا بما حدث لك مع جدك، شعرت برهبة في الكلام لكن الأحساس الأكبر المسيطر علي التخبط في كلامك، فلم أفهم مغزى الكلام لكني أخبرت نفسي ان ذلك بسبب خوفك اثناء الكلام من الكهرباء.

قُمت من مجلسي وتحركتُ في العنبر، اقتربتُ منه وجسدي بأكمله يرتعش، ومددّت يدي لأصافحه، صافحني الطبيب، أخبرته «دخلت هنا واعصابي سليمة، الكهرباء والتعذيب جعل كوب الماء يسقط من يدي، أيمكنك معالجتي دون كهرباء؟»

شد الطبيب على يدي وقال «أحمد، أسمي أحمد قُل لي احمد بلا القاب و أعدك ان رحلتنا ستكون بلا تعذيب لكن ساعدني، من أنت؟»

ـ قسما بالله لا اتذكر اسمي، كل ما اتذكره انني أستيقظت من نومي منذ حوالي سبعة او ثمانية أشهر وكل شهرين ثلاثة مع رجل أو سيدة

مختلفة يلقونني دروسا مختلفة في التعذيب النفسي والجسدي، لا اتذكر اسمي، ولا سني ولا عنواني ولا بيتي ولا أي شيء كل ما اتذكره هي الكهرباء التي يمكنها سد أحتياجات بلد

- من الذي أحضرك لهنا؟
- لا اتذكر، الطبيب المشرف عليّ كما سمعت من الأطباء سيدة قوية اسمها منى، كانت تتلذذ بضربي وتعذيبي، وعندما أقسم لها أنني مجنون تتركني وتأتي لي تاني يوم، لماذا لا تصدقوني؟ أقسم بالله عاقل لست مجنون، اعتبروها هلاوس سمعية وبصرية وأخرجوني من هنا، أريد الذهاب لبيتي وأمي
- من أمك؟
- اسمها أأأ أأأ لا أتذكر!
- تقول السجلات على اصرارك أنك كاتب كبير، كلمني عن اعمالك
- اعمالي كلها فلسفية عميقة تناقش قضايا مصيرية، كنت أتمنى ان يقوم بإخراجها يوسف شاهين لكن لكل أجل كتاب...فقاطعني الطبيب قائلا: خذ هذا الدواء الآن وساكلف

الممرض بإعطائك إياه مرة أخرى بعد العشاء، وسأمر عليك بعد أسبوع من تناول الدواء يوميًا..لن أجعلك تلمس الكهرباء..ولن تُعامل بعنف بعد الأن.

أمر الطبيب الممرض بأعطائي الدواء، أخبره الممرض بأن مُنى رافضة أي علاج معه...كهرباء فقط

يوميًا يدخل عليّ أحمد سرًا يعطيني أياه؛ حتى مر أول أسبوع

بدأت حديثي:

الوجوه مشوشة، لا أستطيع تحديد ملامح، من يقف أين؟اتجول في طرقات بيت متوسطة حياته، أحمل بين يدي كوبا من الماء الساخن لونه يميل للأحمرار، عرفت بعدها أنه "الشاي"، سمعت صوت الأم تخرج من إحدى الغرف، هرولت تجاه الصوت، نائمة على الفراش والطبيب بجانبها يأمرني سريعا بأحضار دواء من الصيدلية المجاورة لنا، هرولت كأنني أجري في سباق مسافات قصيرة، أحضرت

الحقنة وتركت النقود في الصيدلية لم أخذ الباقي، أعطيته أياها ويدي ترتعش، سقط أرضا مني فسقط قلبي بجانبه خشيا انكساره، فطمئني الطبيب وطلب مني الهدوء محللا «أمك بخير لا تقلق»، ركزت نظري على وجه أمي، أبيض، يبلله ماء جبينها، ذاكرتي لم تسعفني لأتذكر تفاصيل وجهها الذي تخطي حاجز النصف قرن، خرج الطبيب مودعا الكل شاكر أمي على تربيتي الحسنة، أحتضنتى فتاة من ظهري، فأدرت وجهي وبكيت بين ثديها، فقالت «أنت رجلنا بعد رحيل أبينا» فسألتها «هل مات؟» فضحكت أمي وقالت «ياليته مات، السقا سيموت ولن يمت هو» ضحكت الفتاة «السقا مات يا بني» فضحكت وقلت «هل مات أحمد السقا؟!، سمعت أنه يجهز فيلمه الجديد بالتأكيد مات داخل الفيلم» ضحكوا الأثنان حتى تبللت شفتاهم من ماء ريقهم، «نعم، مات السقا» قالتها فتاة دخلت الغرفة على ضحكهم الذي لم أستطيع فهمه!

طرق باب بيتي، فتحت حضني الطارق وقال بسعادة «ألم ترتدي ملابسك بعد؟ سنتأخر» أدخل يا مينا، أدخل، سأرتدي ملابسي في أقل من خمس دقائق، ستجهز أختي لك مشروب بارد»

دخلت غرفتي، أخرجت قميصي المفضل وأرتديته، لا اتذكر سنتأخر على ماذا؟ خرجت مرة أخرى لمينا فقال قبل أن يشرب "بأسم اليسوع" فضحكت وقلت "بسم الله، فكلنا عباده يا أحمق» ضحك مينا وقذفني بوسادة من جانبه وقال «بعد مشوارنا سنذهب لأبي يقول لك قصة اسم اليسوع تلك»

خرجنا من البيت، مررنا على مصطفى صديقنا الثالث نزل وهو يتأفف معللا "لم يعطيني أبي مصروفي أعطوني خمسة جنيهات أخرجت من جيبي نصفهم ومينا النصف الأخر، فضمنا مصطفى تحت ابطيه «بحبكم يا رجالي» سلكنا طريق طويل السيارات تمر بجانبنا بسرعة متوسطة، فقال مينا «الى أين نحن ذاهبون؟» فضحك مصطفى وهو ينظر لي «سنذهب لحبيبة قلب محمود، فهي تسكن عند موقف السيارات» فصرخ مينا «لا» لن أذهب في هذا الطريق الطويل، فالشمس ستأكل رأسنا ضحكت أنا وقلت «ألم تأكل الطير من رأس يسوع، أأحسن منه أنت؟» وقفت أنا في لحظة، قال مصطفى بهدوء «ضع بين شرايين قلبك حجر» قلت بصوت لا يسمع «أخيها أكبر منا ويمكنه ضربنا بسهولة» قال مينا «نهرب؟» فقال مصطفى «لا لن نهرب،

ذاهبون لملاقاه صديق لنا، تحركوا» نزلت على ركبتي كأنني أربط حذائي، مرت بجانبي، رائحة عطرها أخترقت جيوبي الأنفية، ضحكتها مع أخيها جعلت قلبي يرقص، منى، منى، يوم المُنى يوم أكون معك يا منى، الأماني تتحقق عند رؤيتك يا منايا، سرحت في خصرها وفخذها من الخلف، ضربني مينا ضربة خفيفة «أخيها ينظر لك يا أبلة»

أكملنا طريقنا ثم دخلنا شارع جانبي لنذهب في طريق معاكس حتى لا نتقابل صدفة، جوعنا، ذهبنا لنأكل كشري عند محل والد زميلتنا في المدرسة، شعرنا بالفخر أن أبيها وصى على أطباقنا، كلنا حتى أمتلئت بطوننا، خرجنا و تملأنا السعادة، شربنا كوب من عصير القصب، والقليل من المسليات! بعد أنهاء رحلتنا التقليدية لكن الجميلة والممتعة، أصر مينا على أصطحابي لمنزله والتحدث مع أبي على يسوع، خائف من داخلي، سمعت من قبل أنهم يأكلون عقلي حتى أكون مسيحي ثم أسب الأسلام ثم ألحد ثم أكره الأديان، تحججت بأن أمي مريضة، يجب علي الذهاب يا مينا، أن غدا لناظره قريب، مرت الساعات بسعادة في منزلنا، أمي بدأت تتحسن تدريجيا، ثاني يوم جاء مينا لمنزلي بعد صلاة العصر لنذهب لأبيه، ليست بالمرة الأولى

التي أدخل فيها بيته، فلن تكفي أصابع يدي وقدمي لعدها، دخلت، سلمت على «مريم» ثم والدته ثم أبيه، فقال أبيه «هل صليت العصر؟» فأجبت «نعم، قبل مجيئي مباشرة» أرتجف قلبي وظهر في عيني التي لم تنزل من على الصليب المعلق على الحائط، صورة رجل مصلوب، أمرأة يخرج منها جناحات بيضاء، صلبان كثيرة، أيات من الإنجيل، فقال الوالد «تعال معي الشرفة، سأشرب سجارة وأتحدث معك قليلا» دخلت معه فبدأ حديثه «لا تقلق، المسيحيون ليسوا كفار، نحن مؤمنون بالله، ومؤمنين بالأخرة ومؤمنين بالرب، لكن الأختلاف الوحيد بيننا اننا نرى عيسى أهم الأنبياء وأنتم ترون محمد، معادلة لا تحمل في طياتها كل ذلك الخوف والكراهية و الشحن المعنوي ضدنا، اسمك يبدأ بنفس حرف محمد، ميم، وأسم أبني مينا كذلك

- فقاطعني الطبيب «أسمك يبدأ بماذا؟؟!!»
- أعتقد أنني قلت "ميم"
- أسمك محمود؟
- لا، لكني لا أتذكر الصحيح
- أثناء حديثك قُلت "محمود"..أكمل

بعد ما أنهيت كلامي مع والد مينا شعرت بالراحة تذكرت أحمق على التلفاز يصرخ «أصلبوهم، أصلبوهم كما يقولون على عيسى عليه السلام»، مرت الأيام تشبه بعضها البعض لا أتذكر منها شئ إلا عزاء كبير في شارعنا، والجميع يعزي، لا أتذكر ملامح أحد، الكل يبكي، لا اعلم من يبكي على من، لكن بالتأكيد طالما هناك بكاء فهناك ميت، هناك شخص أرهق روحه حتى أراحها ملك الموت، هل تعلم يا أحمد أنني أعشق ملك الموت ولكنني بكره الموت! دائما يسلب مننا أعز أحباب، مثل أمي، سلب مني امي، ملك الموت أحبه لأنه قوي، يسحب أقوى ما فينا...الروح، تخيل بني أدم بدون روح؟ ميت، هذه هي حسبة عذرائيل يا رجل، سأسحب روحك وتبا لأحبائك، سأسحب روحك وويل كل الويل لدموع فراقك.

ـ لا تغير الموضوع يا محمود أو أيا كان أسمك، أكمل...

بدأت الكتابة منذ عمر صغير، مواضيعي التعبيرية كانت أحسن مواضيع في المدرسة كلها، نصح الجميع أهلي بتنمية مهارات كتابتي، وبالفعل أصبحت أكبر كاتب في الشرق الأوسط، لا أتذكر أكثر من هذا، الحياة بأكملها مشتتة أمام ناظري.

- أمك، أبوك، أحك لي عنهم...
- أمي، قصيرة، كبيرة المقام، عظيمة، ربتني وأخوتي في غياب أبي، رمانا أبي في غيابه الجب، ولم تأتي قافلة العزيز، أمي كانت القافلة لكن بدون سجن ولا مقارنة بين السجن وما يدعون، عشنا أحرار في وجود أمي وسجناء في وجود الأب، أتذكر أن أبي تزوج بعد أمي، لكنني لا اتذكر أسمها ولا سنها ولا شكلها.
- لحظة يا علي! ماتت أمك في سن صغير؟
- نعم
- ومن التي أيقظتك مرارا وتكرارا وقالت لك على جدك وذهابك له؟
- لا أعلم! لا أتذكر!
- هل شكل أمك في الحقيقة وهو نفس شكلها أثناء وصفك للندوة؟
- نعم، هي بلا محالة

خرج الطبيب من غرفتي سريعًا، مرت الثوان عليّ بملل شديد، جاء مهرولًا غالقًا الباب خلفه

، لم يترك عيني لحظة، أشعل لفافة تبغ، دخلت في نفس اللحظة منى، شعر أسود كاتم، عيون سوداء مكحلة من عند الخالق، أنف مدبب...فم صغير، جسد ممشوق يحبه الرجال ترتدي دائما الفساتين والتنورات القصيرة موشومة الرقبة بوشم عصفور، قالت لأحمد: ماذا فعلت مع علي المجذوب؟

- أسمه ليس علي، أسمه يبدأ بحرف الميم، وأستعاد القليل من ذكراته معي وأعطيته دواء منشط من الممنوعين خارج المشفى

أستشاطت منى غضبا وطلبت منه أن يترك الحالة

لا لن أتركها! الحالة بدأت تتجاوب معي

- لا تصدقه أذا، هو كاذب...أستعمل معه الكهرباء والسباب هولاء المجاذيب لا يجدي معهم الأحترام نفعًا.
- من حاولوا قبلي أستخدموا نفس الأسلوب! لن أستخدمه
- أحمق يا أحمد!
- ماذا قلتِ!

- أحمق، أنت أحمق، تعامل المجاذيب بكل حب وحنان، جميع من عمل تحت أشرافي كان يفعل مثلك في البداية، ثم يتحول لسادي عنيف وخصوصا عندما تكون الحالة أنثى يشرفون على تعذيبها ليتمتعوا بجسدها.
- أنا طبيب يا دكتورة، لست جزار أو مُشرح! أتركيني أعمل بسلام من فضلك

خرجت وهي تتأفف، تبا للحنية، تبا لك يا محمود! توقع أنها تسب أحد العاملين بالمشفى

بعد ثلاثة أيام مملة اقض بها وقتي بروايات جديدة، انواع مختلفة من الدخان، الذكريات بدأت تنكشف تدريجيًا ليّ، اسمي ليس علي..لم أصبح كاتب مشهور بعد، ماتت أمي، قصص حبي زائفة إلا من فتاة لم اتذكرها حتى الأن.

صديقي الوحيد أحمد..أو الطبيب أحمد في بعض الأحيان..المميز في تعامله معيّ الهدوء و السلاسة وحبه ليّ الجلي في عينه.

جدتي قبل وفاتها لم تتوقف عن الكلام السلبي عن الأطباء..يحبون الدماء.

وصفت كل شئ ليّ، «لا أسماء للموتى وخصوصًا الشهداء»

قالتها عندما كانت في عامها الثامن عشر لأمها عندما مات أبيها في حرب فلسطين..دق على بابنا ناقوس الموت بجرس ساعي البريد، قال برأس مكسورة وعين باكية «مات رجل البيت»

ارادت أمي التأكد من انه أبي، لكني أخبرتها «لا إسماء للشهداء»

زرعت امي بعدها العديد من ورق الياسمين و الورد... قُلت لها «يا أمي لمّا تزرعي الورد في مكان رائحتك فيه»

طيلة عمرها تصّر على أن الأرض يجب أن تروى بدماء البشر لتخرج لنا زرع مُختلف الوانه؛ البحر ينطوي في أمواجه حزن من بكى أمامه وفرغ فيه شُحنة دموعه، البكاء يُطهر الروح، سألت جدتي ربها يومًا في دعائها»من يدفن اخر إنسان؟» أأليس من حقه الدفن؟ ام لأنه مجرد حفر قبر لأنسان قبره نحرم عليه الدفن؟ ثم انهت سؤالها بكلمة لن تخرج من عقلي «اجعلني يا الله قبل الأخير..حتى لا يقوم غُراب بدفني»

وماتت بعد تلك الدعوة بأيام قليلة؛ جدتي تحدثت مع الله في أوقات كثيرة دون حساب للكلمات، تُحدثه كأنه داخلها دائمًا، ينير طريقها بحبها له، لم تحدثه يومًا عن انه بعيد..الله دائمًا قريب، قريب من قلوبنا.

- صباح الخير يا ميم!
- أسمي أصبح ميم!
- أكمل يا ميم، أكمل يا علي، أيا كان المسمى اكمل
- أعتقد انني هنا منذ حوالي سنة! أول مرة أحد يقول لي صباح الخير بالكلام....نمت جيد البارحة، هل هو بفضل الدواء أم بفضل أبتسامتك؟
- ضحك أحمد وطلب منه بقية القصة!

تذكرت القليل من ملامح زوجة أبي، جسد يشهق كل من يراه، رقبتها موشومة.

- ماذا قلت!هل تذكرت أسمها؟
- لا اتذكر

لو رأيت صورة لها يمكنك تذكرها؟

ـ أعتقد.

أخرج أحمد هاتفه، بحث كثيرا فوجد صورة لها، فغر علي فاه، نعم هي

لا اتذكر أكثر من ذلك

جدي كتب في مذكرته سبب هروبه من الأرياف:

أطلع يا ولد، وأنسى أن لك أب من الأساس، من اليوم أنت لا أبني ولا يشرفني

ـ كان عمري حينها أربعة عشر عامًا، حينما رأيت والدي العمدة هو يرضع صدر جارتنا الأربعينية التي وهبت له جسدها لضعف جسد زوجها الفلاح الثمانيني، نصبوا الصوان على روحي، وقال أبي لأمي ولكل أهل القرية أن أبنه مات!، ولم يفضح السيدة في القرية، جعلها مثل الخاتم في أصبعه، يضاجعها وقتما شاء وأينما شاء، على سرير أمي، على سرير زوجها، أي مكان المهم يلبي شهوته.

غيرت أسمي واصبح " أحمد النحاس"

هربت من قريتي لقرية بعيدة نسبية، أستضافني على مدخل القرية "عم محمود النحاس" رجل كبير تمكن المرض منه، رزقه الله بثلاثة فتيات، عملت معه في دكانه الذي يصنع فيه الطرابيش دون أجرة، فالله والحق أسكني في غرفة فوق سطوح منزله وكان يحضر لي الطعام مرتين في اليوم، أبنته الوسطى أصغر مني بعام، نشأت بيننا صداقة قوية خاف منها عم محمود بسبب عدم معرفته الكثير عني، فأجبرها على الأبتعاد عني، مرت الأيام الكثيرة في الدكان، تعلمت الصنعة، أصبح لي أجر أدفع منه أيجار الغرفة وأشتري طعامي لنفسي.

مر العديد من السنون، حالي جيد، عمري تسعة عشر عامًا، أتجسس من بعيد لبعيد على أمي في القرية لأراها، أشتقت لها، تمنيت كثيرا سماع خبر وفاة العمدة، لن أقول عليه أبي، فالأب يغفر لولده أول ذنب وأي ذنب أقترفته! لقد رأيته في وضع مخل، كان شديد الطباع، حاد الملامح، سريع البديهة، يخاف منه الكبير قبل الصغير، كان الأب والمعُلم والمصحح والكل في الكل..يهابه الجميع، أولهم أنا، أسمه عبدالسلام، وهو لا يعرف السلام في شيء، السلام عنده هو القتل السريع، أما القتل البطئ فكان بالنسبة له عذاب،

يغتصب زوجتك أمامك، يحرمك من أمك، يأكل طعامك، يتبول على فراشك، يصفعك أذا تأخرت عليه بسبب صلاة، يأخذ أتاوة من الجميع بحجة الحماية، بلطجية الديوان كلهم رهن أشارته، مواشي القرية تخاف من نَّبوتهُ، سيدات القرية يحاولن البعد عن قضيبه، ليس بسبب ضخامته، لكن لنجاسته.

السادسة ونصف مساءً، صيفا:

، وقف أمام المرأة يهندم ملابسه..وضع لمساته الاخيرة وقذف بعض قطرات من عطرهم المفضل...نزل الي سيارته...قام بتشغيل أغنيته المفضلة لمطربته المفضلة... اشعل سجارته..نفخ أمامه في خط مستقيم...بجانبه هدية قيمة لحبيبته، بدأت الحكاية من أول يوم نظرت لها، وجدت نفسي عاشق...نسيم الفردوس داعب خصلات شعرها... نسيم الحب داعب خصلات مشاعري...خيوط العنكبوت أغرقت قلبي...أصبح كالذبابة التي حاوطها خيوطه من جميع الجهات...فطلبت منها ان نصبح صديقين فوافقت بتردد...تحدثنا يوم والثاني والثالث والعاشر واصبحنا اعز

صديقين...ترددت كثيرا قبل ان أخذ خطوة القرب الزيادة! جاءت لي في يوم حزينة...قالت « اشعر ان هناك ألم في قلبي...لقد خلقني الله في عائلة سخيفة يا أخي العزيز»

أخر كلمتين في الجملة شعرت انها تتحدث مع غيري! هل انا أخوها العزيز! لا انتي صديقتي وحبيبتي...ماذا قلت! حبيبتي؟؟

هل أحببتها يا فتى! هل انت على استعداد ان تحبها مثلما تحب انت نفسك! راجع نفسك، راجع نفسك.. كلمات ترددت كثيرا في قلبي وعقلي قبل ان انطق بها.. جلستُ مع نفسي قليلا افكر و افكر، حسنا..لقد أحببتها... لكن متي سأقول!...سأقول عندما يتساوي قوس قزح مع اشعة الشمس علي مدار السرطان....تحججت بأي حجة... لا اريد ان اقول! من فضلك لا اريد ان اقول لها! أستجمعت قواي في يوم من الأيام وقلت لها "بحبك"

فقالت بتنهيدة مريبة " وأنا أيضا" تمر الايام الجميلة السعيدة...الي ان جاء الشهر المعظم...ذهبنا سويا للفطار... مجرد فتحنا للباب...ذهبت عقولنا في عالم أخر..عالم به صوت النقشبندي يردد في ارجاء المطعم

"مَـوّلاي إنّـي ببابـك قَـد بَسـطتُ يَـدي..
مَــن لــي ألــوذ بــه ألاك يــا سَــندي؟
أقُــوم باللّيــل و الأسّــحار سَــاهيةٌ
أدّعُــو و هَمّــسُ دعائـي.. بالدمـوع نَـدى
بنُــور وجهــك إنــي عائــد و جــل..
ومــن يعــد بــك لَــن يَشّــقى إلــى الأبــد..
مَهمــا لقيــت مــن الدُنيــا و عَارضهــا..
فَأنّــتَ لــي شــغل عمّــا يَــرى جَســدي..
تَحّلــو مــرارة عيــش رضــاك..
و مَا أطيـق سـخطاً على عيـش مـن الرغد..
مـن لي سـواك..؟ و من سـواك يـرى قلبي؟
و يسـمَعُه كُل الخلائـق ظـل فـي الصَمـد..
أدّعــوك يَــاربّ فأغّفــر ذلّتــي كَرمــاً..
و أجّعَــل شــفيع دعائــي حُســن مُتَقــدّي
و أنّظُـر لحالي..فـي خَـوّف و فـي طَمـع..
هَـلّ يرحـم العَبّـد بعـد اللـه مـن أحـد؟
مَـوّلاي إنّـي ببابـك قَـد بَسـطتُ يَـدي..
مَــن لــي ألــوذ بــه ألاك يــا سَــندي؟

انتفض جسدي من قوة الايمان الخارجة من صوته..
نظرت لها وقولت في محاولة لفك الخجل:عيونك جميلة كالعادة؟

فابتمست بهدوء

فطرنا سويا... وذهبنا باتجاة كورنيش النيل تبكي عيوننا من الضحك...أمسكت بيدها وسرنا وأكلنا الذرة المشوية وترمس و فرحنا كثيرا وأستبقنا وراء بعضنا البعض و شعرنا بنسيم نهر النيل في جسدنا بأكمله لحظات مرت علينا كالدهر لم نشعر الا عندما رن هاتفي ان الساعة تجاوزت العاشرة مساءً ويجب عليها ان تذهب الي بيتها... عندما سرت لوحدي تذكرت بيت الشعر "سِنة حُلوة ولذَّة خَلْس" خفت ان تكون لحظات فعلا وتذهب الي حالها، لكني اقسمت الا اتركها..هل يستطيع الابن ان يترك والدته!

ثاني يوم ارسل لي اصدقائي في الجامعة رسالة اننا سنلتقي يوما ونفطر سويا..كنا عدد كبير من الاصدقاء والصديقات، ترددت كثيرا قبل ان أقبل الدعوي..هل ستقبل حبيبتي بوجود صديقاتي القدامي! أتصلت بها قولت لها عن مضمون الرسالة فأجابت بتأني:

ـ وما المانع يا حبيبي..أنني أثق بك

أتصلتُ بصديقي أخبرته بحضوري، اتفقنا علي الميعاد والمكان وذهبتَ الي المكان المنشود، كنت أخر من يحضر بحكم الطريق عندي، سلمت عليهم جميعا، أرسلت لها رسالة وقت الافطار "أشتقت لك"، فردت علي بعد دقائق "أشتقت لك"

قطع أحمد كلامي باسمًا

- لا تنس دوائك يا محمود، أو عذرا، يا علي!
- من النحاس ومن جدك ومن كل هولاء؟
- لا اعلم، قلت عنهم الكثير ولا أعلم من هم، شخصيات خيالية في عقلي سيطروا على لساني أثناء تعذيبي، هل قرأت كل ما دون على لساني؟
- نعم قرأت، كلام لن يفهمه أحد، شخصيات متداخلة، كلام ليس له موضع! لا افهم!
- ولا انا يا رجل

هم أحمد بالرحيل، تناول دوائك اليوم أيضا يا محمود

ثاني يوم دخل أحمد عليّ بوجه عبوس، حاولت مرات كثيرة أن أجعله يتحدث..وجهه صامد، صامت.

قال بعد نصف ساعة شرب الكثير من التبغ: زوجة أبيك مُديرة المستشفى.

بحثتُ مع صديقي ضابط في المخابرات سجلات منى المخبأة، خرجت برأة من قضية قتل منذ حوالي ٥ أشهر بعد توكيلها لمحامي صاحب سُمعة سيئة، أسم المجني عليها «زينب عبداللطيف» واستطاعت أن تبرأ نفسها بأن أخوها يعالج في مستشفى للمجاذيب و هو من قتلها، فوضعت المحكمة فرد حراسة على محمود لكن منى لم تحب وقفته أمام باب العنبر فوعدت المحكمة بتسليمه عند علاجه! ثروتها في البنك تتجاوز النصف مليون جنيه مصري، وكتب لها زوجها السابق منزل مكون من خمسة طوابق في منطقة المرج، ومات بعد غيبوبة سكر لم ينقذه أحد منها حسب تقارير الطب الشرعي! تم القبض على أبنها بتهمة بيع المخدرات، حياتها سوداء بكل ما تحمله الكلمة

نفخ أحمد التبغ في وجهي وقال «سأكتشف كل شئ عن هذه الحربائة لكن اجعل كلامنا سرًا»

حدثني أكثر عن أمك.

- تستيقظ قبل الفجر يوميًا، تصلي و تدع الله لنا، تضع الطعام المجفف للعصفور، تقبّل الورد، تقف أمام الموقد لتجهز لنا الفطار، نستيقظ على يدها الناعمة، و قبلتها الحانية.

تملئ الكون بهجة..يوم الخميس من كل أسبوع بعد صلاة العشاء تحدثنا عن أبويها؛ المساواة في الظلم عدل.. لم تقتنع بها أمي يومًا..كيف يكون الظلم عدل؟

تحدثت معنا عن غزو الكويت، ثم تحويل كفة الميزان لأمريكا وسقوط تمثال صدام، كُنا أطفال ناضجين العقل، صديقها الكتاب و صديقتها القراءة، عالقين داخل قوقعة تسمى وطن، الوطن داخلنا حر، خارجنا مُكبل بسلاسل غليظة.

باغتتها أختي بسؤال «هل وصفت لكٍ جدتي مصر وهي صغيرة؟»

- نعم، وصفت الكثير.

"جدتي تقول: عم الهدوء، على انحاء مصر بعد فاجعة حرب فلسطين، مات فيها الكثير..بعدها بسنوات قليلة صغيرة أنقلب الجيش على فاروق..كُنا نظن أن الخير قادم معهم، اختفى النجيب وظهر جمال، من نجيب لجمال لم يتغير الوضع كثيرًا، الحاشية تحكم و الشعب يرضخ...

الرضوخ للظالم ظلم، والثورة على الظلم عدل، شاركت مصر بكل طوائفها في كل الأزمات..أزمة سكر، شاي، طعام، شراب.»

- قاطعني الطبيب..أنت تذكرت بالفعل كل شئ.. الم تتذكر شيئًا عن وفاة أبيك؟
- لا..اتذكر فقط وفاة أمي؛ يوم لم تشرق فيه الشمس ثانية واحدة، مع ان الجميع أقسم أن الشمس حرقت جبينهم و رأسهم من حرارتها.
- وأبيك؟
- ظالم،

سنرجع لتعذيب علي يا دكتور.

- أنفجرت أسارير منى بهذا الخبر، وحمدت الله لرجوع عقل أحمد مكانه.
- أستمعت لكلامك ونصائحك، هولاء المجاذيب لا يصلح معهم الا ذلك، المجذوب يقول أنك تزوجتي أبيه.
- تبدل وجهها في لحظة، شعرت بالضيق، وخرج من فمها العشرات من السباب واللعن والتوعد،

هدأ أحمد من روعها "لا تقلقي يا أستاذتنا، سأعذبه لكِ أشد تعذيب"

- أريد أن أشاهده
- لا، سأكون لوحدي، لو رأكي سيصر على رأيه، أتركيه حتى ينسى مرة أخرى.

تأكد أحمد أنها بالفعل تخفي الكثير، سأقتلك يا مُنى.

- كيف حالك اليوم يا صديق؟
- بخير يا طبيب...سأكمل لك دون أن تطلب

*بعد وفاة أمي و زوجة أبي تعد لنا الطعام كان مالح بشدة، والغريب أن طبقي هو المالح والباقي لا، أقسم أبي انني يجب ان ازور طبيب لكشف على قدرة التذوق! فطعام زوجته لا يوجد مثله، والغريب أني فعلا تذوقت من أطباقه، ملحها مظبوط! الأ انا...تَمُر الأيام على هذا الحال فكنت أكل بسبب جوعي ولا أضع تركيزي في الطعم نفسه.

فتح باب العنبر، دخلت منى وفي يدها كوب شاي ساخن، كيف حالك يا أحمد مع هذا الكاذب المجذوب؟

- بخير، لماذا جئتي؟

ـ لأتاكد أنك تعذبه للحد الذي لا يموته، فنسيت أخبارك أنه مطلوب على ذمة قضية قتل، قتل أخته وقد يكون جنونه هذا تهرب من القضية! أمسك محمود أعصابه واغمض عينه ليتذكرأخته تلك!

زينب، رائحتها زينب، هدوئها زينب، منذ صغرها وهي تملئ البيت حنان وحب، زينوبيا ماتت! كيف ماتت!

المطر يهطل، الزجاج يتخبط في بعضه، الأرض رائحتها ماء، منى تعد العشاء، جهزنا الطاولة، نسيت طبق زينب في المطبخ، دخلت لأحضره، أكلت زينب منه، ماتت في نفس اليوم!

وفقدت الحياة بكل أشكالها منذ ذلك اليوم..

ماتت مسمومة.

أعتذر لك يا محمود عن ما حدث البارحة، فقدت أعصابك بالكامل ولم يكن أمامي سوى تخديرك لتنام!

ـ لا اتذكر ما حدث البارحة إلا أختي! بكيت عليها كثيرا عندما استيقظت فجرا

- لا تقلق، حق أختك وحقك سيأتي عاجلا أم أجلا، قرأت تحاليل دمك عندما جئت، هل كنت تتعاطى أي نوع من المخدرات؟
- لا، لم أشرب سوى السجائر العادية.
- هل تعلم أن أبوك مات وأنت هنا؟
- علمت، لم أحزن عليه، يستحق ما ناله
- سنضع خطة للقبض عليها، أنا أصدقك..فلقد بحثت كثيرًا..كانت تضع لك دواء يجعلك تفقد الذاكرة وتهلوس مدة من الزمن أذا لم تأخذ الدواء المعاكس، نوعه ممنوع بيعه في مصر، قتلت أختك وأبيك لتورثه، وبحكم أنك مجنون ستأخذ حقك بسهولة.

صديقي كما اخبرتك في المخابرات استطاع بكل يسر أحضار كل ما يُدين مُنى، وبمساعدة مُحامي رُفعت قضية على مُنى مديرة مستشفى العباسية.

أيام بسيطة غيرت في وجهه حياة محمود عبدالغني حسان..الذي ظن نفسه "على عبد الوهاب" بعد تناوله أدوية هلوسة...مع الكهرباء.

جلست مُنى أمامي قالت باكية

”قتلت أبوك واختك، المال يعشق المال، كُل من يقف أمامي اقتله؛ لكن قتلك صعب..أبوك وضع عليك حراسة قوية لأنه أحبك كثيرًا، لم يكن ظالم مثلما تقول، عدل بينكم في توزيع الظلم.

تزوجني على أمك وهي حية فماتت بحسرة قلبها على عمرها المنقضي عليه، أبوك ثري، لكنه بخيل عليكم.

أنا فقط من أستطعت الوصول لحساباته البنكية، عدد الأصفار في حسابه أكتر من عدد مرات ضرب أبي ليّ وأنا صغيرة.

لم يكف أبي يومًا عن ضربي وحرقي، عندما مات وشمت رقبتي، ارتديت التنورات القصيرة، تنفست الصعداء بعد الكثير من الغرق، سأموت..انا متاكدة أنني سأموت، عشماوي ينتظر دخولي عليه بالبذلة الحمراء.

أقتربت مني وهمست في أذني «الخوف من الفقر يزيدك فقر، والخوف من الموت يقربه منك خطوة» محكمة!

تقف وراء القضبان، تنتظر سماع نطق الحكم، نعم، فهي من وضعت له المئات من الحبوب المهلوسة في الطعام منذ عامه العشرون على الأرض، أسمه الحقيقي محمود،

لم تحبه ولا أخته أبدا، مثلت الحب بشكل كامل، والأب مسكين صدق حبها الزائف، الأب غني، يملك أراضي وعقارات، والأبن مسكين، تعد له كل ما يشتهي من الطعام، وتسكب في طبقه حبوب الهلوسة، صدق حلمه القديم أنه كاتب، أستطاعت بخفة يدها ومعارفها الكثيرة تغيير أسمه وبطاقته ومحل أقامته وكل شئ، علي، أسمك أصبح علي يا هذا، أنسى كل الفائت، علي هو أسمك، علي هو صفتك، علي هو حياتك، انسى كل محمود سمعتها في حياتك، مع كل جلسة كهرباء تلقاها جسده يظن نفسه أمام جمهوره الكبير العظيم

محكمة!

حكمت المحكمة حضوريا على المتهمة منى عبدالعظيم عبدالله بالأعدام شنقًا!

رُفعت الجلسة!.

وقف أحمد وهمّ ينظفون عنبر تاء من الكلمات الكثيرة و الجمل المكتوبة على الحائط

مسح عامل النظافة كل المكتوب لكن شدّ أنتباهه جملة لم تُحذف بسهولة

"عنبر تاء؛ هُنا البداية، واقسم لكم أنها النهاية.

أشعر أنني لن اخرج من هنا إلا على سرير خشبي و أدفن في الرمال.

من داخل عنبر تاء أحييكم.

تذكروني لو أمكن.

ولا تبكوا عليّ، فأنتم أسوأ حالًا مني"

لوغاريتم
للنشر و التوزيع
Logarithm
Publishing & Distribution